من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

اليهود في الخلافة العباسية

لليهود ، منذ جلائهم عن الحجاز حتى زوال الخلافة العباسية وسقوط دولة المماليك ، أخبار وحوادث متفرّقة في بطون الصحف والمخطوطات . اكثر ما تُذكر في جملة وقائع النصارى . ولا سيما في المراسيم السلطانية القاضية على اهل الذمّة اتّباع احكام الذل والصغار التي اصطلح المؤرخون منذ القرن الخامس للهجرة ، في الارجح ، على تسميتها ايهاماً بالشروط العمرية . وقلّ جدًا ان يُشار الى شيء من اخبارهم رأساً في احوال خاصة بهم . ولا نعلم ان احدًا في الشرق تفرّغ للتنقير عنها والتقاطها من مكامنها ونشرها مرتّبة على حساب السنين ، مع التنبيه على اصولها ومآخذها ، وايراد الفاظ رواتها حيث امكن بالحرف الواحد ، ليتيسر نقدها ومراجعتها لكل من شاء . ولا يخفى ما يحول دون الاضطلاع بهذه الخطّة الصعبة من تعذّر الوسائل ، وتشتت المؤلفات بين مطبوع ومخطوط في الخزائن العامة والخاصة ، وتوزع اجزاء الكتاب الواحد احياناً في اماكن شتى متنائية . فضلًا عما يتطلبه مثل هذا الدرس الشاقّ من الوقت والمؤونة . وهما ما لا ينهض باعبائها كل احد . وقد دلّنا طول الممارسة والاختبار على اقتباس فرز اخبار اليهود عن اخبار النصارى في الاسلام ، لاندراجها معاً في مجموع الاوامر السلطانية ، والاحكام الشرعية الصادرة في حق اهل الذمة عموماً . فلا مناص من نشرها بجملتها في كتاب يشمل وقائع طوائف اهل الكتاب . وقد رأينا ، بينما يتهيأ الفراغ من جمع مواد هذا التأليف الطويل الشقة ، ان نشرح في هذه العجالة ، على وجه التمثيل ، بعض اخبار اليهود في العراق ومصر والشام في ايام الخلفاء العباسيين والفاطميين . مما وجدنا فيه جدّة وغرابة في قسم من المخطوطات العربية التي اتفق لنا الوقوف عليها ، واتسع الوقت لنقل نصوصها . وقد عرفنا منها شيئاً وغابت عنا اشياء .

فرق اليهود في الاسلام

ذكر المقريزي ان اليهود كانوا في ايامه (١٣٦٥-١٤٤١ م) « اربع فرق . كل فرقة تخطّئ الطوائف الأخر . وهي طائفة الربانيين . وطائفة القرائين . وطائفة العانانية . وطائفة السمرة » . وحكى ان العانانية « ينسبون الى عانان رأس الجالوت الذي قدم من المشرق في ايام الخليفة ابي جعفر المنصور . ومعه نسخ المثنا الذي كتب من الخط الذي كتب من خط النبي موسى . وانه رأى ما عليه اليهود من الربانيين والقرائين يخالف ما معه . فتجرد لخلافهم . وطعن عليهم في دينهم وازدرى بهم . وكان عظيماً عندهم . يرون انه من ولد داود عليه السلام . وعلى طريق فاضلة من النسك على مقتضى ملتهم . بحيث يرون انه لو ظهر في ايام عمارة البيت لكان نبيًّا . فلم يقدروا على مناظرته لما أُوتي مع ما ذكرنا من تقريب الخليفة له واكرامه . وكان مما خالف فيه اليهود استعمال الشهور برؤية الاهلة على مثل ما شرع في الملة الاسلامية . ولم يبالِ في اي يوم وقع من الاسبوع . وترك حساب الربانيين وكبس الشهور . وخطأهم في العمل بذلك . واعتمد على كشف زرع الشعير . راجل القول في المسيح عيسى بن مريم عليه السلام . واثبت نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال هو نبي أُرسل الى العرب . الا ان التوراة لم تُنسخ ».[1]

ولا ندري اين نسخ المقريزي هذه الشروح . ولم يتفق له مرة الاشارة الى فرقة العانانية في اخبار كتابه السلوك . ثم عاد في الخطط فنقل في فصل آخر قول بعضهم « ان اليهود عانانية . وشمعونية . وجالوتية . وفيومية . وسامرية . وعكبرية . واصبهانية . وعراقية . ومغاربة . وشمرستانية . وفلسطينية . ومالكية . وربانية . »[2] واشار الى جملة مذاهبهم . وذكر من انسابهم ان الفيومية تنسب الى ابي سعيد الفيومي . وهم يفسرون التوراة على الحروف المقطعة . والعكبرية اصحاب ابي موسى البغدادي العكبري ، واسماعيل العكبري ،

١) الخطط ، مطبعة النيل ، ٤ : ٢٦٨-٢٦٩

٢) الخطط ، مطبعة النيل ، ٤ : ٢٧٢

يخالفون اشياء من السبت وتفسير التوراة . والاصبهانية اصحاب ابي عيسى الاصبهاني . ادعى النبوة وانه عُرج به الى السماء فمسح الرب على رأسه . وانه رأى محمدًا صلعم فآمن به . ويزعم يهود اصبهان انه الدجال وانه يخرج من ناحيتهم . والشرستانية اصحاب شرستان . والمالكية اصحاب مالك تلميذ عانان .[1]

وفي كتاب المنقذ من الضلالة للشيخ محمد بن عبد القادر الشهير بابن الصلف المحلي المالكي ان طوائف اليهود :

الاشمية مشبّهة مجسّمة . يعتقدون ان خالقهم في صورة شيخ ابيض الرأس واللحية . ويزعمون ان له في السماء الثالثة خليفة يسمونه الله الاصغر . ويزعمون انه مدبر العالم . وهم يقولون بالنسخ .

الاصبهانية اصحاب ابي عيسى الاصبهاني . يزعمون ان ابا عيسى كان نبيًا مبعوثًا قبل موسى .

البنيامينية اصحاب بنيامين . موحّدة . غير انها تعتقد ان لله مضادًا من خلقه يضادّه . وهو فاعل الشر غير انه مخلوق من خلقه .

المالكية يزعمون ان الذي خلق العالم ليس هو الله . انما هو ملك من الملائكة . اقدره الله تعالى على ذلك قالوا وهذا الملك هو الذي كلّم موسى عليه السلام . وفلق له البحر . ورثيها مالك الصيدلاني من اهل الرملة .

الفارحية اصحاب يوحنا بن فارح على زمن ارميا عليه السلام . كانوا يعبدون شمسًا يقال له بعل . ويقربون لنجوم السماء . كما هو مذكور في نبوة ارميا . والتوراة عندهم بلسان القبطي . ولا يعرفون العبراني .

العيسوية اصحاب ابي عيسى الاصبهاني ايضًا . يزعمون ان عيسى ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام . نبيان مرسلان لقومها خاصة . ولم يُؤمرا بنسخ شريعة موسى عليه السلام .

السامرة وهم طائفتان . طائفة تقر بنبوة موسى وهرون عليهما السلام ويوشع عليه السلام . وتجحد نبوة من عداهم من النبيين . وطائفة تعترف بنبوة كل من الانبياء عدا عيسى ومحمدًا عليهما السلام . وتزعم أن المسيح لم يبعث بعد وانه سيأتي . وآراؤهم غير آراء اليهود . ويخالفونهم في القبلة . فيتوجهون في صلاتهم الى جبل بالشام . واليه يحجون . وهو الذي نُفي اليه السامري جدّهم . وهم الذين يقولون « لا مساس » ويرون تحريم كل ما مسّه غيرهم . واليهود ترعم انهم ليسوا من بني اسرائيل .

وبالجملة فقد ذكر العلماء انهم يفترقون على احدى وسبعين فرقة . كل فرقة تضلّل الاخرى . والمعروف الآن اربع فرق : القرآؤن . والرابنون . والعيسوية . والسامرة . »[2]

---

١) الخطط ، مطبعة النيل ، ٤ : ٢٧٣ ٢) فصول من كتاب المنقذ من الضلالة الشاهد لمحمد وعيسى بالرسالة في المجموع رقم ٥٠٤٩ في خزانة باريس ، ص ١١٧

وغاية ما ذكره المؤرخون في الاسلام الفرق الثلاث فقط المشهورة . وهي فرقة الربانيين وهم اليهود على الاطلاق . وفرقة القرائين . وفرقة السامريين . ويظهر ان الفرق الاخرى التي تقدم تعدادها كانت قد قلّت جداً واضمحلت . ولذلك لم يكن يُشار اليها في توزيع الرسوم والجبايات السلطانية قال المقريزي :

« وفي سنة ٨١٦ (١٤١٣ م) الزم الامير التاج والي القاهرة النصارى واليهود بحمل ثلاثمائة مرزّة خمر . فوزعت على الاسارى المعروفين ببيع الخمر . وعلى بقية النصارى وعلى طوائف اليهود الثلاث . وجُبيت منهم بعنف وعسف . »[1]

ولا نذكر اننا في كل مطالعاتنا وقفنا على اشارة الى بقية الطوائف التي تقدم تعدادها . خلا ما جاء في ترجمة محمد بن جرير الطبري انه « كان لا يورّث كافرَين . . . لا شمعتياً من اليهود سامرياً . ولا عنانياً من الشمعتي . ووافقه على هذا المذهب الاوزاعي . »[2]

اليهود الربانيون والخيابرة

قد اغفل المؤرخون اخبار قبائل خيبر منذ جلوا عن الحجاز . فلا نعلم كيف تفرقوا في البلاد . ولا شك ان اكثرهم استوطن فلسطين والشام ومصر والعراق . وخُصّوا بالذكر في ايام الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله . وأُعفوا من التعمّم بالسواد دون سائر اخواتهم في الدين . وهو قول النويري :

« سنة ٣٩٥ (١٠٠٤/٥ م) امر (الحاكم) اليهود والنصارى الا الخيابرة بلبس العمائم السود . وعلى اعناق اليهود قراميّ الخشب والجلاجل . »[3]

« سنة ٤٠٣ (١٠١٢/١٣ م) امر الحاكم اليهود والنصارى بلبس العمائم السود الا الخيابرة . ومنعوا ان يستخدموا المسلمين وان يركبوا مع المكارية . »[4]

ولا يدرى سبب هذا الإعفاء . وما كانت حينئذ عنة الخيابرة . وهل كانت لهم قبائل معروفة واحياء مستقلة .

ويؤخذ من بعض الروايات انهم كانوا قد كثروا وتوالدوا في المدائن ، وهي تطيفون القديمة ، في جوار بغداد . وقامت لهم في بغداد نفسها شوكة وصولة

---

١) السلوك لمعرفة دول الملوك . خزانة بريتش موزيوم Or. 2902, f° 16

٢) ارشاد الاريب لياقوت ٦ : ٤٥٤ ٣) نهاية الارب . خزانة ليدن Arab. 2 l., f° 76

٤) نهاية الارب . خزانة ليدن Arab. 2 l., f° 83

حتى استطالوا احياناً على المسلمين . وكانوا اذا شغبوا ، حتى في القرن السابع للهجرة ، ينادون بدعوتهم القديمة في الجاهلية ويصيحون يا آل خيبر ، كما سيأتي شاهده من كلام المؤرخ عبد الرزاق الفوطي . وحدث لهم قبلاً في القرن السادس حَدَث يكاد لا يصدق لما فيه من الجرأة الغريبة . وبُعد وقوع مثله في التقدير والحسبان من قوم من اهل الذمة « ضُربت عليهم الذلة » في الاسلام . وقد ساقه الذهبي في جملة اخبار سنة ٥٧٣. (١١٧٧/٨ م) فقال :

«جاء اهل المدائن فشكوا من يهود المدائن واهم قالوا لهم قد آذيتمونا بكثرة الاذان . فقال المؤذن لا نبالي تأذيم او لا . فتناوشوا وجرت بينهم خصومة استظهر فيها اليهود . فجاء المسلمون مستصرخين الى صاحب المخزن . فامر بحبس بعضهم ثم اطلقهم . فاستغاثوا يوم الجمعة بجامع المدينة . فخفّف الخطيب . فلما فرغت الصلاة استغاثوا . فخرج اليهم الجند فضربوهم ومنعوهم فانهزموا . فغضب العوام نصرة للاسلام . فضجروا وشتموا وقلعوا طوابيق الجامع وضربوا بها الجند وبالآجر وجرحوا . وخرجوا فنهبوا المُخلّطين (١ لان اكثرهم يهود . فوقف حاجب الباب بيده السيف مجذوباً وحمل على الناس فرجموه . واقتلب البلد . وضربوا الكنيسة وقلعوا شبابيكها وقطعوا التوراة واختفى اليهود . فتقدم المدينة بإخراب كنيسة المدائن وان تجعل مسجداً .»(٢

وليت الذهبي نقل السبب الذي من اجله انتصر صاحب المخزن وحاجب الباب ، اي دار الخلافة ، لليهود . مع ما شاع من إنكارهم التأذين . ولعل هذا الانتصار كان بتوسط احد جهابذة الحضرة او اطبائها من اليهود ، اذا صحت رواية الذهبي . وقد خالفه النويري في حكاية هذا الحادث فذكر انه وقع في بغداد ورواه على وجه آخر فقال :

« في هذه السنة (٥٧٣) جرت فتنة عظيمة بين اليهود والعامة ببغداد . وكان السبب ان مؤذناً عند كنيسة اليهود نال منه بعضهم كلاماً فشتم المسلم فاقتتلا . فجاء المؤذن يشتكي منه الى الديوان وتفاقم الحال . وكثرت العوام واكثروا الضجيج . ولما كان يوم الجمعة

١) لم ترد هذه اللفظة في كتب اللغة . ويُستفاد من قصة اوردها التنوخي في نشوار المحاضرة (١ : ٩٨-٩٩) ان المخلّط بالفتح « هو لوز وسكر وفستق وبندق وزبيب يخلط بماء ». وهو ما يقال له اليوم في مصر «النطرة» . وقد نبّه عليه عماد الدين الحنبلي في شذرات الذهب فقال : المخلّط هو الناكهة اليابسة (٤ : ٣٣) فالمخلّطون اذن هم باعة المخلّط من اليهود . وكانوا يبيعون ايضاً اصناف العطر ، ولذلك كانوا يقيمون ببغداد في سوق العطارين ، كما سيجيء من كلام النويري .

٢) التاسع من تاريخ الاسلام للذهبي ، خزانة اكسفرد Laud. Or. 304, f° 146-147

منعت العامة اقامة العتمة في بعض الجوامع . وخرجوا من فورهم فنهبوا سوق الطازين الذي فيه اليهود . وذهبوا الى كنيسة اليهود فنهبوها . ولم يتمكن الشُرَط من ردهم . فامر الخليفة بصلب بعض العامة . فأخرج في الليل جماعة من الشطّار من الحبس فصلبوا . فظن كثير من الناس ان هذا بسبب هذه الكائنة . فسكنت الفتنة . ولله الحمد .[١]

وقد اغفل كلا المؤرخين ذكر الاصل الذي نقلا عنه هذه الواقعة كعادة معظم المؤرخين في الاسلام في الاخذ عمن تقدمهم او عاصرهم ؛ وكتمان المصادر التي استمدوا منها اخبارهم . ولا شك ان رواية النويري اوثق واقرب الى التصديق لانه يبعد جدًا ان يحتج اليهود على تأذين الاسلام . وقد عُرف الذهبي بالمجازفة في اكثر ما يرويه من اخبار اهل الذمة وتراجم رجالهم وتحامله عليهم دائمًا لشدة بغضته لهم .

وهنالك ما هو اشد مما تقدم واعظم شأنًا . وهو الحادث الذي نازع فيه الخيابرة المسلمين في بغداد ، ولم يخشوا من اشهار السلاح في وجوههم والمناداة بعصبيتهم كما في الجاهلية . حكاه عبد الرزاق الفوطي في اخبار سنة ٦٥٤ (١٢٥٦م) فقال :

« فيها زادت دجلة زيادة عظيمة . . . واغرق الناس كلهم والآبار في اثرهم فاحاط ببغداد . . . وعمل اليهود سُكرًا في رأس بين الدربين ودرب الفيار . وساعدهم المسلمون على عمله . فنازعهم فيه من يتعدى ضرره الى ملكه . وجرت بينهم خصومات وشهروا السلاح . ونادوا يا آل خيبر . فقبض الشحنة على جماعة منهم فضربهم وشوّه خلقهم وشهرهم . ونودي عليهم هذا جزآء من شهر السلاح على المسلمين وقال يا آل خيبر . »[٢]

ولا يخفى ما في هذا الاشهار والمناداة من الدلالة على قوة الخيابرة ومنعتهم بعد ستة قرون ونصف من خروجهم من الحجاز . وفي بقاء هذه العصبية الجاهلية بينهم برهان على عدم انقراض الفرسان والشجعان منهم . وقد سبق لهم من آيات هذه الفروسية والشجاعة في اوائل الخلافة العباسية ما لا يكاد يصدق ، لولا ان شهد به عيانًا احد ابنآء الخلافة . وهو ابراهيم بن المهدي اخو الرشيد وعامله على دمشق . ويستفاد من حديثه انه كان للخيابرة في ايامه فضائل وعصابات عُرفت بشدة البأس والفتك ، والخروج احيانًا على السلطان ، وانتهاب اموال الجباية ، والأنفة

١) مجلد من نهاية الارب . خزانة ليدن Arab. 19 Gol. دون ارقام .
٢) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٧–٢١٨

من ذلّ دفع الجزية . وحكى حادثة وقعت له مع احدهم ممن اشتهر بالبسالة وقطع الطريق والمعصية على العمال . وذكر من إبائه ، وعزة نفسه ، وحفظه للذمام ، وفضيلة اخلاقه البدوية ، ما يعيد ذكرى السموأل بن عادياء . ومن العجيب جدًا ان يكون فريق من اليهود ، بعد مضيّ نحو قرنين من تزوحهم عن مواطنهم حول المدينة ، باقين على هذه الفطرة العربية . ويحق للناظر في تاريخهم ان يسجّل لهم هذه الخصال في جملة ما قد يحمدون عليه من طيب الاخلاق . وان يحفظ لفارسهم الشاب يحيى بن ارميا ذكرًا خاصًا بين مفاخر الابطال في الشام .

وهذا نص حديث ابرهيم بن المهدي ننقله برمته . وفي ختامه فوائد طريفة في تاريخ ولاة دمشق وترجمة ابرهيم بن المهدي . ووصف لتجسّس الرشيد واقامته العيون والارصاد على عمّاله واهل بيته . واشارة صريحة الى ان موالي بني امية ، في خلافته كانوا لا يزالون يفسدون في بعض الاعمال حقدًا على الهاشميين :

« قال علي بن المغيرة الاثرم : حدثني ابرهيم بن المهدي انه ولي إمرة دمشق سنتين ثم اربع سنين لم يُقطع على احد في عمله طريق . (قال) وأخبرت ان الآفة كانت في قطع الطريق من دعامة والنمان : مولّيان لبني امية . ويحيى بن ارميا من جود البلقاء . واني لم يضعوا ايديهم في يد عامل . فلما وليتُ كاتبتهم . (قال) فكتب اليه النمان بالأيمان المحرّجة انه لا يفسد في عمله ما دام والياً . (قال) ودخل الي دعامة سالمًا مطيعًا واعلمني ان النمان قد صدق وانه بي . واعلمني ان اليهودي كتب اليه اني خارج الى مناظرتك . فاكتب لي امانًا تحلف لي فيه انك لا تحدث فيَّ حدثًا حتى تردني الى مأمني . فأجبتهُ . فقدم علي شاب اشعر امرد عليه اقبية ديباج ومنطقة وسيف محلّى . فدخل الى دار معاوية(١ وكنت في صحنها . فسلّم من دون البساط . فقلت ارتفع . فقال ايها الامير ان للبساط ذمامًا اخاف ان يلزمني جلوسي عليه . ولست ادري ماذا تسومني . فقلت أسلِم واسمع واطع . فقال اما الطاعة فارجو . واما الاسلام فلا سبيل اليه . فأعلمني بما لي عندك اذا لم ادخل في دينك . قال لا بد من ادآء الجزية . فقال يبنبغي الامير . قال فقلت لا سبيل الى ذلك . قال فانا منصرف على امانك . فاذنت له . وأمرتهم ان يسقوا فرسه عند خروجه اليه . فلما رأى ذلك دعا بداية شاكرية فركبها وترك دابته . وقال ما كنت لآخذ معي شيئًا قد ارتفق منكم بمرفق فاحاربكم عليه . قال فاستحسنت ذلك منه وطلبته .

(قال) فلما دخل قلت الحمد لله الذي انفرني بك بلا عقد ولا عهد . قال وكيف ذاك .

---

١) يستدلّ من هذا القول ان دار معاوية المعروفة بالمقصورة ، بدمشق ، كانت لا تزال قائمة معمورة في ايام الرشيد وان الولاة كانوا يترلونها .

قلت لانك انصرفت من عندي ثم عدت الي . قال شرطك ان تصرفني الى مأمني . فان كان دارك مأمني فلست بخائف . وان كان مأمني داري فردني الى البلقاء . فجهدت به ان يجيبني الى ادآء الجزية على ان اهبه في السنة الفي دينار فلم يفعل . فاذنت له في الرجوع الى مأمنه فرجع فاسمر الدنيا شرًا .

ثم حمل الى عبيد الله بن المهدي مال من مصر . فخرج اليهودي متعرضًا له . فكتب الي النعمان بذلك . فكتبت له إمرة بمحاربة اليهودي ان عرض للمال . فخرج النعمان ملتقيًا للمال ووافاه اليهودي ومع كل واحد منهما جماعة . فسأل النعمان اليهودي الانصراف فابى . وقال ان شئتَ خرجتُ اليك وحدي وانت في جماعتك . وان شئت تبارزنا . فان ظفرت بك انصرف اصحابك الي وكانوا شركاني في الغنيمة . وان ظفرت بي صار اصحابي اليك . فقال له النعمان يا يحيى ويحك انت حدث . وقد بُليت بالعُجب . ولو كنت من قريش لما امكنك معاداة السلطان . وهذا الامير هو اخو الخليفة . وانا وان فرّقنا الدين . احب ان لا يجري على يدي قتل فارس من الفرسان . فان كنت تحب ما أُحب من السلامة فلا يبتلى بك وبي من يسوّغنا قتله .

قال فخرجا جميعًا وقت العصر فلم يزالا في مبارزة الى الظلام . فوقف كل منهما على فرسه واتكأ على رمحه الى ان غلبت النعمان عيناه . فطعنه اليهودي فوقع سنان رمحه في منطقة النعمان . فدارت المنطقة وصار السنان يدور بدوران المنطقة الى الظهر . فاعتنقه النعمان وقال له أغدرًا يا ابن اليهودية . فقال له أوَ تحارب بنام يا ابن الأمة . واتكأ عليه النعمان عند معانقته اياه فسقط فوقه . وكان النعمان ضخمًا فصار فوق اليهودي فذبحه وبعث برأسه . فلم يختلف على بعده احد .

ثم ولي بعدي دمشق سليمان بن المنصور فانتهب اهل دمشق وسبوا حُرَمه . ثم ولي بعده اخوه منصور . فكانت على رأسه الفتنة العظمى . ثم لم يُعطَ القوم طاعة بعد ذلك الى ان افتتح دمشق عبد الله بن طاهر سنة عشر ومائتين (٨٢٥ م) . وكان السبب في صرفي عن دمشق المرة الاولى انني اشتهيت الاصطياح فاغلقت الابواب . قال فحضر الكاتب فصار اليه بعض الحشم فسأله ان يكتب له الى صاحب البريد فلم يمكن اخراج الدواة . واستعجله ذلك الغلام . فاخذ قحمة وكتب في خزفة بحاجته . فاخذ سليم حاجبي تلك القحمة فكتب على الحائط « كاتب يكتب بقحمة في الخزف . وحاجب لا يصل » . فوافى صاحب البريد فقرأ ما كتب سليم . فكتب بذلك الى الرشيد . فوافى كتابه الرقة اليوم الرابع . فساعة وقع بصره على الكتاب عزلني وحبسني مائة يوم . ثم رضي عني بعد سنة . ثم قال لي بعد سنتين بقي عليك لما تخيّرت ولاية أولّيكها . فقلت دمشق . فسألني عن سبب اختياري لها فاخبرته باستطابتي هواءها واستمرآني مآءها واستحساني سجدها وغوطتها . فقال قدرك اليوم عندي يتجاوز ولاية دمشق . ولكن اجمع لك مع ولاية الصلاة والدّواوين ولاية الخراج . فقد لي عليها . » (١

(١ الرابع من تاريخ الاسلام للذهبي . اكسفرد Laud. or. 244, f° 182-3

وفي هذا الخبر المطرب من المُلَح واللُّمَح الى ما كانت عليه في ذلك العصر اخلاق القوم واحوال المجتمع ، ما يندر جداً وورود مثله في الاخبار القديمة . واغرب ما فيه قول اليهودي الفارس الشاب — وما احبّه الى كل قلب ! — « ان للبساط ذماماً » ولذلك وقف دونه وابى ان يطأ عليه . واشد غرابة منه تخلّيه عن فرسه تحرّماً من مقاتلة السلطان عليها بعد ان شربت من مآء الولاية . وهذا التذمّم والتحرّج من يهوديّ خارجيّ شقّ عصا الطاعة وتعوّد إخافة السبل واستباحة الاموال من اعجب العجب.

وقد اشتهر اليهود في كل عصر ومصر بالتفوّق في اقتناص المناصب والاموال. والتلطف في ابتغآء الوسائل . لإحراز الجاه والتقرب من السلطان . ولذلك كثر منهم جهابذة الخلفآء ، وخزّان الوزراء ، وكتّاب الدواوين ، وكبار الاطبآء ، واعيـان التجار ، واغنيآء المتصرفين والمتقبّلين . وما زالوا يزاحمون بالمناكب ويغتلون في الذروة والغارب حتى تبوّأوا ايضاً منصّة الوزارة ، ولو بانتحال الاسلام . ولو اردنا ان نفيض في تعداد كل المناصب والاعمال التي تلقّفوها بالحذق والرفق في السعي والمصانعة ، لامتدّ بنا شوط الكلام. ولكن حسبنا ان نروي نكتة واحدة وُصف فيها احدهم بوضع اليد على استيفآء الاوقاف الاسلامية بحلب ، وكيف عزل عنه مرتين بشكوى من الفقهآء . وكان يعود اليه كل مرة باصفق وجه واكبر دالّة . وهو ما حكاه ابن تغري بردي في ترجمة احمد بن عبدالله بن الزبير شمس الدين الحلبي الخابوري قال:

« مولده بالخابور سنة ستمائة (١٢٠٣/٤م) وهو خطيب حلب . كان له محاسن ونُطرف ونوادر وخلاعة . وله في ذلك حكايات لطيفة . منها انه كان في ايام قرا سنقر نائب حلب مستوفٍ على الاوقاف يهودي . فضايق الفقهاء واهل الاوقاف وشدد عليهم فشكوه الى قرا سنقر فعزله . ثم انه سعى وبرطل وعاملهم اشد من الاول فشكوه فعزله . ثم ولي فشكوه فعزله . ثم ولي فشكوه فعزله . ثم سعى وتوسل . فاجتمع الفقهاء وقالوا ما لنا في الخلاص منه الا الخطيب . فجآؤا اليه فقال ما اصنع بهذا الكلب ابن الكلب . فقالوا ما له غيرك . فقال يدبّر الله . وامر غلامه ان يأخذ سجادة ودواة واقلاماً وورقاً ومصحفاً على كرسي . وقال له توجّه بها الى كنيسة اليهود . وافرش لي السجادة . وكان ذلك بعد عصر الجمعة فحضر الشيخ الى الكنيسة وجلس على السجادة وفتح المصحف من اوله واخذ ان يكتب . فجآءه اليهود ورأوه وما امكنهم يقولون له شيئاً لانه خطيب البلد وهو ذو وجاهة وثاق

عليهم الوقت وارادوا الدخول في السبت واغمروا . فقالوا له يا سيدي قد قرب اذان المغرب وتريد تنافي الكنيسة . فقال ابيت فيها لاني نذرت ان انسخ هذا المصحف هنا . فضاقوا وضجروا وقالوا يا سيدي والله ما نُطيق هذا . وغدًا السبت . فقال كذا اتفق ولا بد من المقام هنا الى ان يفرغ هذا المصحف . فدخلوا عليه وقبلوا اقدامه واقسموا عليه . فقال ولا بد . قالوا نعم . قال التزموا لي ان تحرموا هذا المتوفي حتى لا يرد يباشر الاوقاف فالتزموا له بذلك واستراح المسلمون منه » [1]

ومن كبار الجهابذة في عهد العباسيين هرون بن عمران ، ويوسف بن فنحاس[2] ، واسرائيل بن صالح ، وسهل بن نظير[3] . وقد شرح الصابئ كيف كان ابن عمران وابن فنحاس يوافقان الوزراء على اختيان الدولة واحتجان اموالها . ومنهم ايضاً علي بن هرون في ايام الامير بجكم المتغلب على السلطان وكان في سنة ٣٣١ (٣/٩٤٢ م) « وقع على التجار ببغداد ظلم عظيم وخبط شديد . فتهارب الناس وخرج عن بغداد جماعة من مياسير اليهود والمجوس الى الشام . وكان الامير بجكم قبل ذلك بسنتين قد جمع الكتاب بجيلة منه « وقبض النقيب على علي بن هرون الجهبذ اليهودي . واخذ احمد بن علي الكوفي منه بعد عذاب عظيم مائة الف وعشرة آلاف دينار . ثم قتله بجكم بعد ذلك بديدة . »[4] ومنهم ايضاً ابو علي بن فضلان اليهودي . التمس منه ابو علي بن اسماعيل قرضاً لبهاء الدولة وهو بواسط . فلم يسعفه . فقرر مع بهاء الدولة اخذ اليهود ومصادرتهم تقريرًا معلوماً . . . » فلما حصل ببغداد قبض على جماعة من اليهود وعسفهم في المطالبة والمعاقبة . »[5]

ومن اشهر الضمّان والمتقبلين ابن عَلّان ضامن البصرة . قال النويري : « في سنة ٤٧٢ (١٠٧٩ م) امر السلطان بتغريق ابن عَلّان اليهودي ضامن البصرة واخذ من ذخائره اربعمائة الف دينار . »[6]

ومن الكتّاب المجوّدين ابو غالب ابن كونة اليهودي ذكره ابن الساعي في

١) المنهل الصافي . باريس ٢٠٦٨ ، ص ٦١ ٢) تاريخ الوزراء للصابئ ، ص ٧١
٣) المقتبس من مجارب الامم لابن مسكويه ، ص ٣٤٦ ، طبعة مصر .
٤) كتاب الاوراق للصولي ، ص ٢٥١ و١٤٧-١٤٨
٥) ذيل تجارب الامم للروذراوي ، طبعة مصر ، ١٩١٦ ، ص ٢٨٣
٦) مجلد من نهاية الارب . خزانة ليدن Arab. 19a Gol. ، دون ارقام .

تاريخه . توفي في مطمورة واسط سنة ٦٠١ (١٢٠٤ م) قال النويري: كان يزور على خط ابن مقلة من قوة خطه.[1]

وكان لليهود بمصر صولة ودولة في ايام الخلفاء الفاطميين. ومن الحارات التي كانت منسوبة اليهم في القاهرة « الجودرية » قال المقريزي : « ولها حكاية سمعت جماعة يحكونها. وهي انها كانت سكن اليهود والمعروفة بهم. فبلغ الحاكم انهم يجتمعون بها في اوقات خلواتهم ويغنون:

وأمة قد ضلوا ودينهم مثلُ
قال لهم نبيهم نعم الإدام الخلُّ

ويسخرون من هذا القول . ويتعرضون الى ما لا ينبغي سماعه . فاتى الى ابوابها وسدّها عليهم ليلاً واحرقها . فالى هذا الوقت لا يبيت بها يهودي ولا يسكنها ابداً.[2] وكان منهم قوم بالاسكندرية يتعرضون ايضاً لما لا يعنيهم من شؤون الدولة . ولما حضر الافضل امير الجيوش الى الاسكندرية « كان بها يهودي يبالغ في سبّ الافضل وشتمه ولعنه فلما دخلها الافضل قبض عليه واراد قتله وقد عدّد عليه ذنوبه . فقال ان معي خمسة الاف دينار خذها مني وأعتقني واعفُ عني. فقال والله لولا خشية ان يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك وعفا عنه. ولم يأخذ منه شيئاً. »[3]

ومن الحارات المعروفة بهم ايضاً في القاهرة « الوزيرية ». قال ابن عبد الظاهر : « الوزيرية منسوبة الى الوزير يعقوب بن يوسف بن كلّس ابي الفرج. كان يهودياً من اهل بغداد فخرج منها الى بلاد الشام. ونزل بمدينة الرملة واقام بها. فصار فيها وكيلاً للتجار واجتمع في قبله مال عجز عن ادائه. ففر الى مصر في ايام كافور الاخشيدي فتعلق بخدمته . . . وكان صاحب حيل ودهاء. ومكر ومعرفة مع ذكاء مفرط وفطنة . . فكثرت امواله واتسعت احواله. واعجب به كافور لما خبر فيه من الفطنة وحسن السياسة فقال لو كان هذا مسلماً لصلح ان يكون وزيراً.

---

١) مجلد من نهاية الارب. خزانة ليدن Arab. 19a Gol.

٢) الخطط ، مطبعة النيل ، ٣ : ٦-٧

٣) أخبار مصر لابن ميسر ، ص ٥٩

فلما بلغه هذا عن كافور تاقت نفسه الى الولاية فاحضر من علّمه شرائع الاسلام سرًّا.»[1] واسلم في شعبان سنة ٣٥٦ (٩٦٧ م) فخلع عليه كافور ، وركب اليه اهل الدولة يهنئونه. فقلق بسببه الوزير جعفر بن الفرات المعروف بحترابة. وقبض عليه بعد موت كافور وصادره على اربعة آلاف وخمسمائة دينار[2]. فنزح الى المغرب، وخدم المعزّ لدين الله. وعاد معه الى القاهرة ، وقلّده وزارته . ووزر بعده للعزيز بالله. وأعجب بخدمته غاية الاعجاب. ولما اعتلّ علّة الوفاة وكب العزيز اليه عائدًا وقال له: وددت لو انك تبتاع بملكي او تفدى فافديك بولدي... وصلّى عليه وألحده بيده في قبره وانصرف حزيناً لفقده . وامر ان تغلق الدواوين اياماً بعده[3]. وهو الذي احضر للعزيز من دمشق القراصية على اجنحة حمام الزاجل[4].

وممن وزر ايضاً للفاطميين من اليهود الاسالمة ابو منصور صدقة بن يوسف الفلاحي. كان ناظرًا على الشام فهرب من وجه امير الجيوش انوشتكين الدُزبري. وقدم الى مصر ، والوزير يومئذ صفي الدين ابو القاسم الجرجرآئي. فقرّبه ورعى له حرمته. ولما مات سنة ٤٣٦ (١٠٤٥ م) اوصى ان تفوّض له الوزارة من بعده. ثم اسلم بعد الوزارة. وفيه يقول الحسن بن خاقان الشاعر المصري يصف اخلاقه:

حجابٌ وإعجاب وفرط تصلّفٍ ومدّ يدٍ غو الملى بتكلّفِ
فلو كان هذا من ورآء كفاية عذرنا ، ولكن من ورآء تخلّفِ (٥

وكان اذ ذاك ابو سعد ابرهيم بن سهل التستري اليهودي يتولى ديوان والدة المستنصر « وذلك انها كانت جاريته فاخذها منه الظاهر واستولدها فولدت المستنصر بالله . فلما افضت الخلافة الى ولدها فوضت اليه امر ديوانها . فعظم امره وانبسطت كلمته بعد وفاة الجرجرآئيّ الوزير حتى لم يبقَ للوزير الفلاحي معه الا رسم الوزارة . فدبّر الفلاحي في قتله فقتل . وحقدت والدة المستنصر على الوزير الفلاحي وتحققت انه تسبب في قتله فقبضت عليه وصرفته

١) المقفى ٣:٧
٢) مجلد من غاية الارب للتوزيري . خزانة ليدن Arab. 2 l. Gol., p. 20
٣) الاشارة الى من نال الوزارة لابن الصيرفي ، ص ٢٢
٤) طالع المقالة الشرقية في « مشرق » ١٩٣٨ ، ص ٦١-٦٢
٥) حسن المحاضرة للسيوطي ، مطبعة الموسوعات ، ١٣٦:٢

عن الوزارة سنة ٤٤٠ (١٠٤٨ م) واعتقلته في خزانة البنود . ثم قتل بعد ذلك بيسير . »[1] وكان والده ابو الفضل يوسف علي الفلاحي متولي ديوان دمشق . وهو الذي هجاه ابو القاسم الوائلي الدمشقي الشاعر الهجّاء بقصيدته المشهورة بالمجون والقذارة ومن اجلها عزل عن عمله وارذلها :

يا اهل جيرون ، هل أساركم اذا استقلت كواكب الحمل (٢

وهجا معه ايضاً بهذه القصيدة منشا بن ابراهيم القزاز اليهودي. ويؤخذ من قصيدة هجاء له اخرى ان منشا المذكور كان من خيابرة دمشق. وهو قوله فيه:

ان منشا قد زاد في التيه وزاد في شامنا تمذّيه
وهو مغبط على الوصيّ ومن ينزى اليه ومن يواليه
يذكر ايام خيبر بهم فهم قذًى في اماقيه (٣

ووصف بعض المؤرخين ابا اسعد التستري بالظلم والعتوّ. قالوا وزاد اذاه في حق المسلمين حتى كانوا يحلفون «وحق النعمة على بني اسرائيل»[4]. ومن الابيات التي قيلت فيه يومئذ:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العزّ فيهم ، والمال عندهم ، ومنهم المستشار والملك
يا اهل مصر، اني نصحت لكم: حوّذوا ، قد حوّذ الفلك (٥

ولما قتل ابو اسعد التستري ، ردّ المستنصر لولده النظر في احد الدواوين ، ولاخيه ابي نصر هرون خزانة الخاص . وهو الذي توسط لثمال بن صالح بن مرداس ، امير حلب ، بطلب العفو له من المستنصر. وكان هذا التوسط سبباً لاغراء الوزير ابي البركات اليازوري بقتله « فقبض عليه واخذ جميع ماله وعوقب حتى مات . »[6]

وفي سنة ٤٦٥ (١٠٧٢/٣ م) ولي وزارة المستنصر بالله ابو المكارم بن

١) مجلد من غاية الارب السابق الذكر ، ص ٩٦
٢) ارشاد الاريب لياقوت ٦:٢٦
٣) ارشاد الاريب ٦:٢٥
٤) مجلد من غاية الارب للتوبري. خزانة ليدن Arab. 3 I. Gol., f° 96
٥) اخبار مصر لابن ميسّر ، ص ٢
٦) اخبار مصر لابن ميسّر ، ص ٣.

اسعد ثم قتله امير الجيوش بدر. ووزر بعده ابو علي الحسن بن ابي سعد ابراهيم ابن سهل التستري. وكان يهودياً فاسلم ثم صُرف بعد ايام قليلة[1]. وهو لا شك الذي ولّاه المستنصر النظر في احد الدواوين بعد قتل والده كما تقدم.

وممن اشتهر من اليهود الاسالمة، في دولة التتار، الرشيد فضل الله بن ابي الخير الهمذاني الطبيب. قال ابن العماد الحنبلي في ترجمته: «كان ابوه يهودياً عطاراً. فاشتغل هذا في المنطق والفلسفة واسلم. واتصل بقازان وعظم في دولة خربندا بحيث انه صار في رتبة الملوك. قام عليه الوزير علي شاه بانه هو الذي قتل القان خربندا لكونه اعطاه على هيضة مسهلاً فتقياً فخارت قواه. فاعترف وبرطل جربان بالف الف دينار فما نفع. بل قتل هو وابنه. وكان يوصف بحلم ولطف وسخاء ودهاء. فسّر القرآن العظيم فشحنه بارآء الاوائل. وعاش نيفاً وسبعين سنة. وقيل بل كان جيد الاسلام. وهو والد الوزير المعظم محمد بن الرشيد وكان وزير التتار ومدبر دولتهم.»[2]

ومما برز فيه اليهود ايضاً الطب وما يتبعه من الكحل والصيدلة. ولذلك كثر فيهم العطارون وباعة العقاقير والاعشاب. وتقدّم منهم في الدولة الاموية اطباء مثل ماسرجويه، متطبب البصرة، وفرات بن شحناثا في ايام المروانيين. ويظهر انهم كانوا اكثر عدداً في مصر في عهد الفاطميين منهم في بغداد في زمان العباسيين. واول من طبّ منهم للمعزّ لدين الله، منذ قدومه الى مصر، موسى ابن العازر واولاده اسحق واسمعيل ويعقوب بن اسحق. وخدم منهم الحاكم بامر الله جراحي من اهل مصر عالجه من عقر أزمن فلقّبه الحاكم لذلك بالخفير النافع. وتتابع منهم في خدمة خلفاء مصر افرائيم بن الزفّان في ولاية الافضل بن امير الجيوش. وتلميذه ابو الخير سلامة بن مبارك بن رحمون. ومبارك بن سلامة. والرئيس هبة الله. والمهذب ابو الفضائل بن الناقد. والموفق شمس الرئاسة ابن جميع. والموفق بن شوعة. وممن ادرك منهم اواخر دولة الفاطميين وتعلق بخدمة الملوك الايوبيين ابو المعالي بن تمام، واسلم جماعة من اولاده. والرئيس ابو

١) الاشارة الى من نال الوزارة، ص ٥٢؛ واخبار مصر لابن ميسر، ص ١٥و٢٢

٢) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٦: ٤٤-٤٥

عمران بن ميمون القرطبي وولده ابرهيم. وابو سعد المحلي يعقوب بن اسحق. واشتهر في الشام سكّرة الحلبي. عالج حظية نور الدين بن زنكي. وعفيف بن عبد القاهر بن سكرة من اهل حلب. وابو الحجاج يوسف المغربي الاصل. اقام بمدينة حلب وخدم الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين. واوحد الدين عمران بن صدقة الدمشقي في ايام الملك العادل ابي بكر بن ايوب. والطبيب المعروف بالمفشكل اليهودي في اوائل القرن السادس للهجرة ورد ذكره في ابيات هجاه بها ابو الحكم عبيد الله الباهلي من مدينة المرية بالاندلس. ومن اطبآء المماليك زين الدين خضر الاسرائيلي امر السلطان برسباي بتوسيطه سنة ٨٤١ (١٤٣٨ م) لما يئس من الحياة وظن ان اطبآءه تصروا في معالجته[1].

واما في العراق فمن ورد ذكره من اليهود الاسالمة ابن توسين في الموصل. واوحد الزمان ابو البركات هبة الله بن علي بن ملكا. اسلم في خدمة المستنجد بالله. وربّن الطبري، كان طبيباً منجماً من اهل طبرستان. وكان والده علي بن سهل الربّان ــ ولذلك قيل له ربّن ــ طبيباً ايضاً مشهوراً. انتقل من طبرستان وسكن سُرّ من رأى. وولده هو ابو الحسن علي صاحب كتاب فردوس الحكمة. اسلم على يد المعتصم. ومن المغاربة الذين قدموا الى المشرق السموأل ابن يهوذا. توفي في المراغة سنة ٥٧٠ (١١٧٤ م) بعد ان دان بالاسلام.

كنائس اليهود الربانيين بدمشق

لما استولى العرب على دمشق كان لليهود فيها عند الجسر كنيسة كانت لم تزل ماثلة في زمان ابن عساكر. عدّها في جملة الكنائس الخمس عشرة التي اشتمل عليها كتاب الصلح. ولما نقل ابن شاكر الكتبي كلامه عليها قال ايضاً هي باقية الى يومنا هذا[2]. (٧٦٤ للهجرة = ١٣٦٢/٣ للميلاد). والجسر المشار اليه هو دون

١) الجزء الثاني من نيل الامل في ذيل الدول للقاضي عبد الباسط المؤرخ. خزانة اكسفرد Huntl. 610، دون ارقام.

٢) الثالث من عيون التواريخ. باريس ١٥٨٧، ص ٩٢

ريب الجسر الذي كان عند باب كيسان ، مدخل حارة اليهود قديماً.

وفي تاسع شوال سنة ٦٩٦ (١٢٩٧ م) هاجم هذه الكنيسة بعصابته الفاسق المشهور بقباخه خضر بن ابي بكر بن موسى العدوي ، شيخ الملك الظاهر بيبرس البندقداري. ونهب ما فيها من الآلات والامتعة . واحرق التوراة . قال النويري: « واخرج اليهود منها وجعلها زاوية . وعمل لاصحابه بسيسة عشرة قناطير بالدمشقي . فاكلوا منها . وحضر المغاني فعمل سماطاً ورقصوا على بقية البسيسة بارجلهم . فما افلح بعد ذلك . فاجتمع اليهود . وخرجوا عن مظالم كانت بينهم . ورفعوا اصواتهم بالدعاء وقالوا « يا محمد بن عبد الله نحن في ذمتك وعهدك . لا دولة لنا ولا سلطان . فانتصر لنا . » فكانت حادثة السيل . وخرج الشيخ خضر من الكنيسة على صورة منكرة »[1].

وهذا السيل الذي اشار اليه النويري . هو الذي فاجأ دمشق في غد اليوم نفسه . وعلا سور دمشق قدر رمح . وفي بعض المواضع احد عشر ذراعاً فيما قالوا. واتلف الجسور والابنية . واخرب المنازل والدور . وردم الانهار بالطين . واقتلع الاشجار من اصولها . واخذ الطواحين بحجارتها . واهلك زهاء عشرة آلاف نفس. وكان خلق كثير من الروم والعجم قدموا حجّاجاً . ونزلوا بالميدان فغرقوا عن آخرهم هم وجمالهم ودوابهم[2].

وكان السلطان بيبرس يحب شيخه المذكور محبة عظيمة عمياء . حتى انه سمّى احد اولاده خضراً لموافقته لاسمه[3] . ولذلك اطلق له الكنيسة المشار اليها والاملاك التي حولها[4]. ففعل بها فعلته القبيحة . دون ان ينكر عليه شيئاً منها فجعلها زاوية . وبقيت في يده ويد اصحابه ثماني سنين . ثم ردت على اليهود بالمحضر الثابت انه اخذها بغير مستند[5].

---

١) التاسع والعشرون من نهاية الارب للنويري . باريس ١٥٧٨ ، ص ٤٤

٢) التاسع والعشرون من نهاية الارب للنويري . باريس ١٥٧٨ ، ص ٤٤–٤٥

٣) البداية والنهاية لابن كثير . ورواية الطبراني . باريس ١٥٩٦ ، ص ١١٣

٤) تالي كتاب الاعيان للموفق فضل الله الصفاقي . باريس ٢٠٦١ ، ص ٢٢

٥) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٦ ، ص ١٠٣

وفي سنة ٧٩١ (١٣٨٩ م) كتب القاضي الباعوني ، وهو نائب الغيبة ، للسلطان . واتهم اليهود انهم فعلوا ما يوجب نقض العهد ، فجاء الجواب ان يُفعل بهم ويفعل . وان تجعل كنيستهم مسجداً . فذهب القضاة وجماعة من الفقهاء وغيرهم اليها ، وقرّر النائب اقامة إمامها . وأقيم بها شعائر الاسلام ، وبقيت كذلك سنتين . فلما جاء الملك الظاهر برقوق الى دمشق « تشفع اليهود بمن وصل خبرهم اليه . وان ما نُسب اليهم لم يثبت منه شيء . ولكن الباعوني كتب من غير تثبت على عادته . »[1]

وكان بدمشق قوم على شاكلة القاضي الباعوني دأبهم دائماً التحلّل على اهل الذمة . والتجنّي عليهم بايسر الاسباب والحجج توصلاً الى مصادرتهم واذيتهم للانتفاع منهم . وفي هذه السنة نفسها حصل حريق شديد شرقي الجامع الاموي ووُجد يهودي قريباً منه . فاتُّهم انه الفاعل وأُمسك وضرب . قال ابن قاضي شهبة : « فاعترف على أناس . يقال ان الوالي امره بذلك . فسأل النائب القضاة فقالوا لم يثبت عليه شيء . فامر النائب بتحريقه . فأُخرج الى تحت القلعة . فقتل وأُحرق . وانكر الناس ذلك على النائب . وغالب الناس يعتقد انه بريء . وطُلب جماعة من اليهود الذين اقرّ عليهم وأخذ منهم شيء . وكُتب في اليهود الى السلطان . فوصل كتابه بمصادرة اليهود وان يؤخذ منهم مال كثير . فعوقب بعضهم . ثم ورد مرسوم باطلاقهم . وان لا يؤخذ منهم شيء مما كان قُرّر عليهم . »[2]

وفيما عدا كنيسة الجسر ، كان للربانيين معابد اخرى بدمشق لم يُنبّه عليها في كتب التاريخ الاسلامية . لانه لا يُعقل ان تُغتصب منهم كنيسة الجسر ثاني سنين ثم سنتين كما تقدم ويبقوا دون بيت للصلاة . ولا سيما انه كان لهم دائماً بدمشق شأن وعدد يذكر . وقد حكى ابن قاضي شهبة انه لما وقع الوباء بدمشق سنة ٧٦٩ (١٣٦٣ م) « تزايد . وجمهوره في اليهود . يموت منهم في كل يوم نحو الخمسين قال ابن كثير لعله فقد منهم من اول شعبان الى مستهل رمضان نحو الف نسمة

١) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٩ ، ص ٨١ و١٠١-١٠٢

٢) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٩ ، ص ٨١

خبيثة كما اخبرني بذلك صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال . ثم كثر ذلك فيهم في شهر رمضان جدًا . »[1] ومعلوم تشدّد يهود دمشق في اتباع سنّتهم وحرصهم على الصلوات في اوقاتها . فلا محالة انه كان لهم معبد آخر اجتمعوا فيه في السنوات التي خرجت فيها كنيسة الجسر عن ايديهم . وقد صرّح ابن عساكر ، ونقل عنه ابن شداد ، وابن شاكر الكتبي أنه كان لليهود بدمشق كنيسة اخرى في درب البيّاعة (وفي بعض النسخ درب البلّاعة) لا ذكر لها في كتاب الصلح جعلت مسجدًا . وهو المسجد المعروف بابن الشهرزوري كان يعقد فيه مجلس الوعظ[2] . ويظهر ان الدرب المومأ اليه كان من وراء باب كيسان لانحصار سكن اليهود في جواره حتى اليوم . وقد ذكر السخاوي باب كيسان فقال :

« في سنة ٧٦٥ (١٣٦٤ م) في ربيع الآخر اعاد نكلي بُغا النائب فتح باب كيسان بدمشق بعد غلقه نحو مائتي عام من ايام العادل نور الدين محمود بن زنكي . وعقد عليه جسرًا فمر الناس عليه مشاة وركبانًا . وتكامل عمله في رمضان وسمّوه الباب القبلي . وجاء في غاية الحسن . وكثر سرور الناس به حيث قاضوا في حارات اليهود . وأمن من مكرهم وخبثهم . سيما وقد جدد النائب في ذي القعدة هناك داخل السور خطبة واستتر خطيبه . ولم يتفق ذلك منذ فتوح الشام . واستتر في خطابته الصدر بن منصور الحنفي . »[3]

اليهود القرّاؤون

نـدر جدًا ان يُشار الى القرائين خصوصًا ، في اخبار اليهود عمومًا في الاسلام . ولم يُميَّزوا عن الربّانيين في شيء من الاحكام والمراسيم السلطانية ، خلافًا للسامريين كما سيجيء . وكانوا غالبًا يمتزلون عنهم في الحارات وبيوت الصلاة . وقد انفرد ابن ابي اصيبعة بذكر بعض اطبّائهم . عرف منهم في القاهرة السديد ابا البيان بن المدوّر . قال كان يهوديًا قرّاءً خدم الخلفاء المصريين في آخر دولتهم . وبعد ذلك خدم الملك الناصر صلاح الدين . ومثله ولده الشيخ السديد بن ابي البيان . ولد في القاهرة سنة ٥٥٦ (١١٦١ م) وخدم الملك العادل

١) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٨ ، ص ١٦٧

٢) الثالث من الاعلاق الخطيرة لابن شداد . خزانة بريتش موزيوم Add. 23333 f° 107 ، والثالث من عيون التواريخ للكتبي . باريس ١٥٨٧ ، ص ٩٣

٣) الاول من الذيل على دول الاسلام . خزانة اكسفرد Marsh. 508 ، دون ارقام .

ابن ايوب . ومنهم كذلك الموفق ابو البركات بن شميا . توفي بالقاهرة وخلف ولداً يقال له سعيد الدولة ابو الفخر كان طبيباً نظيره . اقام بالقاهرة ايضاً.[1] ولعل من أهمل منهم اكثر ممن نُوّه به . ولم يتفق لنا مرة في كل مطالعاتنا ان نعثر على اسم واحد منهم قرّاء ام اسلمي تولى الوزارة او تقلّد احد المناصب الخطيرة في الدواوين السلطانية . ما لم يكن قد فات النقلة والرواة التنبيه على نسبته ، وهو الأرجح . وقد الجأنا الشك والارتياب الى ان نعدّ في جملة الربانيين كل من لم يُنَصّ على انه من احدى الفرقتين الأخريين . لقلة احتفال الكتبة والمؤرخين في الاسلام بالاشارة الى عزوة كل من اتفق لهم ذكره في غضون الاخبار والتراجم من رجال اهل الذمة ، جهلًا ام احتقاراً . ولهذه الاسباب لم نجد بعد كل بحث وتنقيب ما نُطرف به من وصف احوال القرائين ومقاماتهم في عهد الخلفاء العباسيين .

كنيسة القرائين بدمشق

لا شك انه كان للقرائين حين دخول العرب دمشق كنيسة خاصة بهم ، ولكنها لم تذكر في كتاب الصلح الذي اشار اليه ابن عساكر . ولا ندري حقيقة هل كانت كنيسة درب البياعة التي اغفلها كتاب الصلح وسبق ذكرها ملكاً للربانيين كما نظنّ ام للقرائين . واول مرة ورد فيها التنبيه على كنيسة خاصة بالقرائين سنة ٧٢١ للهجرة (١٣٢١ م) وهي السنة المشهورة التي ثار فيها المسلمون في الديار المصرية واتوا فيها على الكنائس والديارات نهباً وهدماً وإحراقاً . وانتهز جماعة من مسلمي دمشق هذه الفرصة ، وادّعوا على اليهود القرائين ان كنيستهم التي كانت بدرب الفواخير هي محدثة . وكاتبوا الايوان الشريفة بمصر ، فبرزت المراسيم السلطانية بهدمها . فهدمت في يوم السبت التاسع عشر من رجب (١٤ اغسطس = آب) وقد وصف ابن حبيب هذه الحادثة باسجاعه اللطيفة الآتية :

« في سنة احدى وعشرين وسبعمائة حُكم بهدم كنيسة اليهود المعروفين بالقرائين الكائنة بدمشق . بعد ان ثبت انها محدثة في دار الاسلام . ولم يُلتفت الى ما رقمتهُ من ثبوت قِدَمها الاقلام . لانها كانت داراً لبعض اليهود ومنزلًا يأوي اليه ابناء الخنازير والقرود . فجعلوها

١) عيون الانباء ٢ : ١١٥ و١١٨-١١٩

كنيسة . وكم لهم من فعلة خسيسة . ثم اخفوا امرها . ولم يظهروا سرها . حتى ان كثيرًا من الناس لا يعرف مكانها . ولا يتحقق وقت نقلها من المجالس الى الكنائس وزمانها . وبلغ من سعي في هدمها من لبس اثواب الثواب املًا . ورفع اجر من حكم بإزالتها على من لا يضيع اجر من احسن عملًا .»(١)

ونقل هذا الخبر شمس الدين الجزري فافاض قليلًا في الشرح وقال :

« قيل ان هذه الكنيسة كانت من نحو مائة سنة بيتًا تجتمع فيه طائفة اليهود من القرائين . ثم أُضيف اليها شيء بعد شيء حتى كبرت واتسعت وصلحت عمارتها . فلما كان في سنة تسع وتسعين وستمائة (١٣٠٠ م) عند دخول التتار الى دمشق تمكن اليهود من اصلاحها وعملوا لها منبرًا . كل ذلك والمسلمون لا يعلمون . وذلك انها بدرب الفواخير وغالب سكانه اليهود . وهي في درب داخل درب . جوار سوق باب كيسان . والباب يومئذ مسدود . فبذلك تمكنوا من عمارتها وما شعر بهم المسلمون . ثم ظهرت في هذا الوقت فهدمت .»(٢)

وقد وصف المفضل ابن ابي الفضائل هذه الكنيسة بقوله « الصغيرة المعروفة لطائفة القرائين بدمشق .»(٣) فكان لهم من ثم كنيسة اخرى اكبر ، ولعلها هي التي كانت بقاياها ماثلة حتى زمن دخول ابرهيم باشا المصري الى دمشق سنة ١٨٣٢ ، في حارة القرائين قديمًا ، في الحي المعروف اليوم بحارة الزيتون . وكان القرّاؤون قد انقطعوا من دمشق منذ سنين عديدة . ولم يكن يحيا منهم يومئذ الّا رجل واحد يقال له المعلم ابرهيم ولد موسى فضول النجار القدسي . وهو الناظر على اوقافهم . فاشترى منه الروم الكاثوليك في تلك السنة موضع الكنيس وما حوله من الدور والابنية . واقاموا في مكانها كنيستهم الكبرى المعروفة باسم سيدة النياح . وحضر المبيع الخاخام ابرهيم ليرلي الاسلامبولي نائبًا عن طائفة القرائين في الآستانة والقرم ومصر . وتم العقد بتاريخ اواسط جمادى الاولى سنة ١٢٤٨ . وانقرضت منذ ذلك اليوم فرقة القرائين من دمشق . ولم يبقَ لهم فيها آثار ولا ديار .

اليهود السامريون

ويقال لهم ايضًا السامرة والسَّمرة كأنه جمع سامر . وكانت منهم جماعات

١) درة الاسلاك في دولة الاتراك للحسن بن حبيب الدمشقي . باريس ١٧١٩ ، ص ١٦٣

٢) رواية الزبيري في مجلد من غاية الارب في خزانة ليدن Arab. 19b Gol., f° 14

٣) النهج السديد . باريس ٥٥٢٥ ، ص ١٩٤

في مصر والشام. اشتهر منهم بالطب الحكيم السامري المعروف بشمس الحكماء. وكان في خدمة الملك الناصر صلاح الدين . وصدقة بن منجا بن صدقة توفي في خدمة الملك الاشرف موسى ابن الملك العادل ابي بكر . والحكيم موفق الدين يعقوب بن غنائم مولده بدمشق ووفاته سنة ٦٨١ (١٢٨٢ م) ، والصاحب امين الدولة ابو الحسن بن غزال بن ابي سعيد . اسلم ليتولى الوزارة فلقب بكمال الدين[1]. وكان اولًا يخدم بالطب الملك الامجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه بن ايوب ، ووزر له . ولما توفي الملك الامجد بدمشق ، استقل بالوزارة للملك الصالح اسمعيل بن الملك العادل بن ايوب . وارتفع محله عنده بحيث لم يكن يخرج عن اشارته . وقد توسع ابن ابي اصيبعة في ترجمته ، وبالغ في وصفه بالعلم والرئاسة والفضل والادب والقدرة على النظم والتصنيف . واورد شيئاً من شعره. وكان جمّاعة للاموال والجواهر ونوادر المخطوطات. وذكر ابو المظفر سبط بن الجوزي تركتهُ فقال: « وظهر لـه من الاموال والجواهر واليواقيت والتحف والذخائر مـا لا يوجد في خزائن الخلفاء والسلاطين . واقاموا ينقلونه مدة . قال وبلغني ان قيمة ما ظهر له ثلاثة آلاف الف دينار غير الودائع التي كانت له عند ثقاته والتجار . ووجد له عشرة آلاف مجلد من الكتب النفيسة والخطوط المنسوبة . »[2]

ولما ملك دمشق الملك الصالح نجم الدين ايوب ابن الملك الكامل ، نقل الملك الصالح اسمعيل الى بعلبك سنة ٦٤٣ (١٢٤٥م). وهمّ الصاحب امين الدولة باللحاق به . وجمع امواله وذخائره وصار بها ظاهر دمشق . فقبض عليه حينئذٍ الامير نائب السلطنة معين الدين بن شيخ الشيوخ . واخذ جميع ما معه. واستولى على جميع املاكه وارسله تحت الاحتياط الى مصر فاعتُقل فيها. وروى النويري انه شُنق فيها باشارة الملك الصالح نجم الدين. والصحيح ما ذكره ابن ابي اصيبعة ، وهو من معاصريه . حكى لهُ من رآه بمصر انه شنق بامر الامير عز الدين التركماني . وان موته كان سنة ٦٤٨ (١٢٥٠ م) خلافاً لقول النويري سنة ٦٤٣

١) عيون الانباء ٢ : ٢٣٠-٢٣٩

٢) مجلد من نهاية الارب . خزانة ليدن Arab. 2 l. Gol., f° 348-349

ومن الاطبآء السامريين الذين بلغوا الوزارة بطبهم وجودة رأيهم مهذب الدين يوسف بن ابي سعيد بن خلف . تميز بالعلوم ، واتقن الصناعة الطبية ، واشتهر بحسن العلاج والمداراة . وابرأ ستّ الشام اخت الملك العادل بن ايوب من علة قصر في مداواتها الاطبآء . وخدم عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب . ولما توفي اقام عند ابنه الملك الامجد بهرام شاه ، وحظي لديه ونال الاموال والنعم . ثم وزر له وارتفعت منزلته لديه ، واستقلّ بتدبير دولته حتى قال فيه الشهاب فتيان الشاغوري الدمشقي :

الملك الامجد الذي شهدت له جميع الملوك بالفضل
اصبح في السامري معتقدًا ما اعتقد السامري في العجل

وما لبث قوم من اهله واقاربه ان وفدوا عليه من دمشق . ففرقهم في الخدم والمناصب . فاشتدّت اطماعهم ، واطلقوا ايديهم في العسف واختيان الاموال . فكثرت الشكاوي منهم ومن صاحبهم . وبلغ الملك الامجد ما غيّر رأيه في وزيره . فقبض عليه وعلى جميع المستخدمين من السامريين واستصفى اموالهم . واعتقله حتى خرج من كل ثروته . ثم اطلقه وحضر الى دمشق وتوفي فيها سنة ٦٢٤ (١٢٢٧ م) واجتمع به ابن ابي اصيبعة وروى له ثلاثة ابيات من شعره ووصفه بالادب والفضل .[1]

ومما تقدم يتبين انه كان للسامريين بدمشق شأن يذكر . وكان لهم حارة خاصة بهم فوق العنّابة بالقرب من برج الرؤوس .[2] كانت لا تزال عامرة في سنة ٩٢٦ (١٥٢٠ م) . ولما غزا الافرنج بيروت في ٢٧ شوال من السنة المذكورة ، نقل الى دمشق خمسة احمال من رؤوس القتلى منهم . وفُرّقت على الحارات . ووضع حمل منها في حارة السمرة وبقيت فيها الى ان اكل غالبها الكلاب .[3]

---

١) عيون الانبآء ٣ : ٢٢٣-٢٢٤.

٢) قال محمد بن كنان : « حارة السرا كانت فايت جامع المجرور وبرج الروس » (حدائق الياسمين في قوانين الخلفآء والسلاطين ، بذيل المروج السندسية في تلخيص تاريخ العسالمية ، خزانة برلين Ms. or. Wetzst. II n° 1117) .

٣) جزء فيه شرح ابن طولون الصالحي على قصيدة الشيخ ابرهيم بن صارم الدين الصيداوي في غزو الافرنج لبيروت في ايامه . خزانة ليدن Arab. 1864, f° 8

وكان بدمشق درب يسمى درب السامري احترق سنة ٧٩٨ (١٣٩٦ م) في الحريق الهائل الذي التهم كثيراً من اسواق دمشق وقيسرها وخاناتها وابنيتها.[1] ولا محالة انه كان ايضاً للسامريين كنيسة خاصة بهم لا ننزي اين كان موقعها. أفي حارة المنابة ، كما هو الارجح ، ام في غيرها. ولم نقف على اقل إلماع اليها.

وامتاز السامريون منذ اوائل دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، عن سائر اليهود بمصر والشام ، باتخاذ العمائم الحمر ، بينما كان الربانيون والقرآؤون يعتمون بالصفرة . وقد نقل ذلك غير واحد من المؤرخين . نجتزئ بقول ابن قاضي شهبة منهم في ترجمة الملك الناصر :

« في سنة سبعمائة (١٣٠٠ م) ألزموا اهل الذمة بالصغار . وعزلوا عن الجهات . وألزم اليهود بالعمائم الصفر والسمرة بالحمر . والنصارى بالزرق . فتميزوا عن المسلمين وحصل بذلك خير عظيم . » (٢)

وقد اضحك الشعراء وقتئذ اجتماع هذه الالوان الثلاثة في رؤوس اهل الذمة ، فافحشوا في تعييرهم والهزء بهم . وقال احدهم الشيخ شمس الدين الطيبي :

تعجبوا للنصارى واليهود معاً والسامريين لما عمموا الخرقا
كأنما باتت بالاصباغ منهلة نمر السحاب وضحى فوقهم ذرقا (٣)

عداء اليهود للنصارى في الاسلام

من دواعي الاسف والحزن ان اليهود ، مع انهم كانوا اخواناً للنصارى في مقاساة شدائد الذمة ، وعدلاً لهم في الصبر على الصغار والهوان . والاقسام بملات الذل من الزنار والعمامة والخفار . لم يكن هذا الاشتراك في البلاء والشقاء ليشغلهم لحظة عين عن السعاية بالنصارى لدى الحكام ، وتدبير المكايد لهم مبالغة في نكايتهم واذيتهم . واكثر ما كانوا يدأبون فيه ويبتغون لهم من اجله الغوائل استحصال الكنائس والديارات . والاعانة على ابطال رسومها . ولما كان بعض الملوك والولاة يأمرون بهدم شيء منها كان اليهود في مقدمة الاعوان الذين

١) الدرة المضية في الدولة الظاهرية لابن صصري . أكسفرد Laud. or. 113, f° 173-173

٢) الذيل . باريس ١٦٠٠ ، ص ٣٠

٣) الخامس من المنهل الصافي لابن تغري بردي . باريس ٢٠٧٢ ، ص ٢٠٠

يبادرون للوثوب عليها. ونهب آنيتها. والمعاضدة على تخريبها. واشعال النيران فيها. وفي التاريخ عدة شواهد ثابتة نقتصر منها على ذكر ما يأتي على سبيل التمثيل فقط دون اقل استقصاء:

كان في صنعاء اليمن في خلافة المنصور العباسي كنيسة قديمة منذ ايام الحبشة مشهورة بالحسن عجيبة البناء يقال لها « القُلَيس ». وكان بصنعاء يهودي عالم فجاء الى العباس بن الربيع يتقرب اليه . وقال له ان ملكاً يهدم القليس يلي اليمن اربعين سنة[1]. فما لبث المنصور ان امر بهدمها.

وفي السنة ٣٢٨ (٩٤٠ م) ثار المسلمون بمدينة عسقلان وهدموا كنيسة مريم الخضراء . ونهبوا ما فيها واعانهم اليهود حتى احرقوها[2]. قال يحيى بن سعيد « وعاضد المسلمين اليهود في هدمها. وكان اليهود يشعلون النار في الحطب ويجرّونه بالبكر الى اعلى السقوف حتى يحرقوها. وينحلّ رصاصها وتقع عُمُدها. »[3]

وفي سنة ٣٥٥ (٩٦٦ م) نهب المسلمون كنيسة القيامة « وتوجّه الرعية الى كنيسة صهيون واحرقوها ونهبوها. . . وهدم اليهود واخربوا اكثر من المسلمين »[4] وهلمّ جرًا.

ويُستفاد من بعض النصوص ان اليهود كانوا احياناً كالشرَط للسلطان . يستخدمهم للإذلال والاهانة والتعذيب . ولما أُسر الملك لويس التاسع في وقعة دمياط ، حزن عليه النصارى. قال ابو شامة « بلغني ان النصارى ببعلبك سوّدوا وسخّموا وجوه الصور في كنيستهم حزناً على ما جرى على الافرنج . فعلم بهم الوالي. فجنأهم جناية شديدة. وامر اليهود بصفعهم وضربهم واهانتهم »[5].

وربما انتُدب اليهود في بعض الامصار لخلافة الجلّادين والمشاعلية في قتل الأئمة. ومن هذا القبيل ما جاء في اخبار سنة ٨٦٧ (١٤٦٢ م) ان في ليلة الخميس

---

١) تاريخ مكة للازرقي. باريس ١٦٢٨ ، ص ٥١
٢) الخطط للمقريزي. طبعة بولاق ، ٣ : ٤٥٥
٣) تاريخ الذيل ، ص ٩٦
٤) تاريخ الذيل ، ص ١٢٤–١٢٥
٥) ذيل الروضتين ، باريس ٥٨٥٢ ، ص ٢٠٢

تلسع وعشرين شوال « اتفق عبد وأمة سوداء على مولاتهما بطرابلس الغرب . وقد كان غاب الزوج عنها فقتلاها . فأخذا في ظهر يومهما ذاك . فأحضرا . ثم أمر بهما فذُبحا قصاصاً . وتولى ذبحهما رجل من اليهود على عادتهم في تلك البلاد اذا وقع مثل ذلك يحضرون يهودياً من اعراض اليهود كائناً من كان . فيؤمر بذبح من وجب عليه القصاص . تحاشياً عن ان يتولى الواحد منهم شيئاً من ذلك »[1] .

ومن ابين الادلة على ما كان في صدور اليهود من البغض الشديد والعداء للنصارى ، انه لما تم حريق الباطلية بمصر سنة ٦٦٣ (١٢٦٥ م) « امسك الظاهر (بيبرس) النصارى واليهود بالقاهرة ومصر . وجمع الجميع ليحرقهم . وركب بنفسه في عدة من الامراء ليقف على حريقهم بظاهر القاهرة . فبرز اليه ابن الكازروني الصيرفي . وقال للسلطان : « سألتك بالله لا تحرقنا مع هؤلاء الكلاب النصارى اعدائنا واعدائكم . بل أحرقونا بمفردنا . » فضحك السلطان[2] .

وآثار مثل هذا العداء كثيرة في كتب الاخبار الاسلامية ، فلا حاجة الى التوسع بالتنبيه عليها .

---

١) الروض الباسم لعبد الباسط الحنفي . الفاتيكان ٧٢٨ ، ص ٥٥

٢) الرد على الذمة للواسطي ص ٤١١ ، *Journal of the American Oriental Society*, vol. 41, p. 386-415

دُور القمار في الاسلام

كان القمار شائعاً في اكثر المدن والاقطار الاسلامية . وله دُور مشهورة يدخلها من يشاء حتى الغلمان ، بدليل قول القاضي ابي علي المحسن التنوخي.

اجذا القصر الطا لع من دار القمار
رائحاً من خيلاء الحسن في اجمل ازار ،
انا من هجرك في بعـــد على قرب المزار (١

وحكى ابو الفرج الاصبهاني عن ابي الفضل الكاتب انه دعا غلاماً (الكاتب) ذات يوم . فاقام عنده وخلع عليه. فما استقر به المجلس حتى خرج. قال « فاتبعته رسولاً ليعرف خبره . فاذا هو قد جاء الى غلام كان يحبه فسأل عنه فوُجد في دار القمار. فمضى اليه حتى خلع عليه تلك الثياب. »(٢

ولا يدرى اين كانت بدمشق دار القمار التي اشار اليها الشاعر ابن رويبل الابّار الدمشقي في هجاء زوجته،وكان له دكان في سوق الابارين يبيع فيه الابر:

أغربت زوجتي بشرب العقار اسكنتني بجنب دار القمار (٣

وكان بدمشق مواضع اخرى يجتمع فيها المقامرون تحت ظلّ الاشجار وفي الاسواق. قال ابن قاضي شهبة: « في شعبان سنة ٨٠٠ (١٣٩٨ م) قطعت اشجار الصفصاف التي بين النهرين عند جامع يلبغا بامر النائب . شُكي اليه انهم يقامرون هنالك ويرتكبون مفاسد . وكانت هذه الاشجار قطعت في ايام نيابة منجك »(٤ (سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٢ م). ومن اشهر محالّ القمار ايضاً الساحة المعروفة بها تحت القلعة . وكانت حافلة بالاسواق والحوانيت والمتنزّهين . تحفّ بها الدور والقصور . وتزدحم فيها ارباب اللهو والبطالة على حلقات القصّاص والسمّار والمضحكين. « وفيها كلّ ما يتلذّذ به السمع ويسر العين وتشتهيه النفس »(٥.

١) ارشاد الاريب لياقوت ٦ : ٢٥٧
٢) الاغاني ، طبعة ليدن ، ٢١ : ٥٠
٣) خريدة القصر للعماد الكاتب . خزانة باريس ٣٣٢٩ ، ص ٤٤
٤) ذيل ابن قاضي شهبة . خزانة باريس ١٥٩٩ ، ص ١٢٣
٥) محاسن الشام للبدري ، ص ٦٣

وكان النظر في هذه المجتمعات ومراقبة ما يجري فيها منوطاً بالمحتسب. ففي سنة ٨٣٠ (١٤٢٧ م) « خُلع على ناصر الدين بن شبل بالحسبة برسوم السلطان الاشرف. فاخذ في انكار المنكرات. غير انه كان يخطىء في كثير مما يفعله. ثم بعد ايام وقف الناس للنائب وشكوا حالهم بسبب منعهم من الجلوس في الشوارع المتسعة. فرسم لهم بذلك ونادى به ومنع من يتعرض لهم. واعاد المقامرين ومن يبيع المنكرات الى تحت القلعة»[1]. وانما اعاد القمار لانه كان عليه مكوس مقررة للسلطان كما كانت على بيوت الفسق والفجور والسكر وسائر المحرمات الشرعية التي كان رزق الديوان منها. وكثيراً ما حدث مثل ذلك بمصر فكانت تتعاقب الايام وكل حرام فيها مباح، لحاجة السلاطين للاموال. ثم يقوم بعض المصلحين من النواب والامراء فيأمرون بالنهي عن المنكر. وفي سنة ٧٤٤ (١٧٤٣ م) « أبطلت دار المقامرين وما عليهم من المكوس بامر النائب آل ملك »[2].

ويؤخذ من بعض النكات التي رواها ابن سعيد انه كان في دور القمار بمصر عامل حسن الشارة يقال له المطيّع. دأبه تهوين الخسارة على المغلوب وإطماعه في التعويض والربح. وربما اسعفه بالاقتراض له احياناً. وله على ذلك جار معلوم من ضامن الدار. وهو ما حكاه قال:

« امر الاخشيد في وقت من الاوقات بهدم المواخير ودور المقامرين والقبض عليهم. فأخذوا وأدخل عليه جماعة من المقامرين وعُرضوا عليه. وفيهم شيخ له هيئة. فقال هذا الشيخ مقامر؟ فقالوا هذا يقال له المطيّع. فقال الاخشيد وايش المطمع؟ فقالوا هو سبب عمارة دار القمار. وذلك ان الواحد اذا قمر ما معه. قال له فالعب على ردائك فلعلك تغلب. وربما اقترض له. ولهذا الشيخ جراية باخذها على هذا كل يوم من متقبّل دار القمار. فضحك الاخشيد وقال يا شيخ تُب الى الله وحده من هذا. فتاب وامر له الاخشيد بثوب وردآء والف درهم. وقال يجرى عليه في كل شهر عشرة دنانير. فانصرف الشيخ شاكراً. فقال ردّوه. قال وخذوا ما اعطيناه واجلحوه. فضربه مائة عصا. ثم قال خلّوه. اين هذا من تطييبك؟ »[3]

---

١) اللمعات البرقية في النكت التاريخية لابن طولون الصالحي، ص ٦١

٢) الاول من نيل الامل في ذيل الدول للقاضي عبد الباسط المؤرخ. اكسفرد Huntl 258، دون ارقام

٣) المُغرب في حلى المَغرب لابن سعيد. ليدن، ص ٢٠

وكان المقامرون ببغداد يجتمعون ايضاً في المنازل الخاصة ويتراهنون على الشباب والاناث ، فضلاً عن الاموال. وقد اتخذ اللصوص هذه العادة وسيلة لدخول البيوت بدعوى اللعب فيها ، ثم يترقبون الفرص لسرقتها. قال القاضي التنوخي:

« ومن طريف حيل اللصوص الواقعة في عهدنا ان ابا القاسم عبيد الله بن محمد المثقّف حدثني انه شاهد لصاً قد أُخذ وتشاهدوا عليه انه يغشّ الاقفال في الدور اللطاف التي تُتخذ على انها مُرتّب. فاذا دخل حفر في الدار حفرة لطيفة كأنها بئر النرد. وطرح جوزات كأن انساناً كان يلاعبه. واخرج منديلاً فيه مقدار مائتي جوزة فتركه الى جانبها. ثم دار يكرّر ما في الدار. وان جاء صاحب الدار ترك عليه قماشه (١ وطلب المفاتة والمخرج. فان كان صاحب الدار جلداً فواثبه ومنعه وهمّ باخذه وصاح « اللصوص » واجتمع الجيران. اقبل عليه وقال ما ابردك. انا اقامرك بالجوز منذ شهور. قد افقرتني واخذت مني كل ما املكه. ما صحتُ ولا فضحتك بين جيرانك. وانت لما قمرتك الآن قماشك اخذت تدعي علي اللصوصية يا غشّ. يا بارد. بيني وبينك دار القمار الموضع الذي تقامرنا فيه. قل بحذائهم او بحذاء هؤلاء الحاضرين « قد ضنيت » (٢ . حتى ادع عليك قماشك. فكلما قال الرجل هذا لص. يقول الحاضرون انما يريد ان لا يُفضح بالقمار. فلذا ادعى عليه باللصوصية. ولا يشكون انه مقامر. وان الرجل صادق. ويخلصون بينهما. ثم ياخذ الجوز وينصرف. ويفتضح الرجل. » (٣

واكثر ما كانت المقامرة بلعب النرد والشطرنج. وكان بعض الخلفاء انفسهم لا يرون بأساً بقبول الرهان ولو على مال له صورة. حدّث ابن احمد بن حمدون قال:

« كنت قد حلفت وعاهدت الله تعالى ان لا اعتد مالاً من القمار. وان لا يقع في يدي شيء منه الا صرفته في ثمن شمع يحترق. او نبيذ يُشرب. او جذر (٤ منتنة تسمع. قال فجلست يوماً ألاعب المعتضد بالنرد. فقامرته سبعين الف درهم. فنهض المعتضد يصلي العصر من قبل ان يأمر لي بها. وكان له ركوع طويل قبلها فتشاغل بها. وصليت انا العصر فقط. فجلست افكر

١) القماش هنا متاع الدار

٢) الصواب ضنوت كما سيأتي شاهده لان الفعل واوي. وفي كتب اللغة : ضنا « ضنان ». ويظهر انه كان يكفي ان تقال هذه اللفظة ليكرن اللعب باطلاً.

٣) نشوار المحاضرة ١ : ٧٨-٧٦

٤) جذر المنية اجرها. وهذا المعنى لم يرد في معاجم اللغة ولا في تكملة المعجمات العربية لدوزي. ولم ينبه عليه الجواليقي في كتاب المعرّب ، ولا الخفاجي في شفاء الغليل. وارجح من ذكره فيما وقفنا عليه الثعالبي في فقه اللغة (المطبعة الكاثوليكية ص ٢٢٣) قال : والجذر اجرة المغني وهو دخيل » وهو ما فاتت مراجعته احمد باشا تيمور في مقالة الالفاظ العامية (مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٢٣ ، ص ٧٥-٧٦) وظن ان اللفظ محرف عن الشذر.

واندم على ما حلفت عليه. وقلت كم عساني اشتري من هذه السبعين الفاً شمعاً وشراباً . وكم اجذر وما كانت هذه العجلة في اليمين . ولو لم اكن حلفت كنت الآن قد اشتريت بها ضيعة . قال وكانت اليمين بالطلاق والعتاق وصدقة الملك والضيعة . واغرقت في الفكر . والمعتضد يراني وانا لا اعلم . فلما سلّم من الركوع سبّح وقال لي يا ابا عبدالله في اي شيء فكرت . فقلت خيراً يا مولاي . قال بحياتي اصدقني . فصدقته . قال وعندك اني اريد ان اعطيك سبعين الفاً في القمار ؟ فقلت له فتضمن ؟ قال نعم ضمنت . قم ولا تفكر في هذا . قال ودخل في صلاة العصر الفرض . قال فلحقني غمّ اعظم من الاول وفكر اشد منه . وندم على فوت المال . وقلت لِمَ صَدّقتُه ؟ واخذت الروم تمشي . قال فلما فرغ من صلاته وجلس . قال لي يا ابا عبدالله بحياتي اصدقني عن هذا الفكر الثاني . فلم اجد بدّاً فصدقته . قال اما القمار فقد قلتك اني قد ضمنت بك . ولكني اهب لك سبعين الف دوم غير تلك من مالي . فلم يكن علي اثم في دفعها . ولا عليك اثم في اخذها . وتخرج من يمينك فتأخذها وتشتري بها ضيعة حلالاً . فقبلت يده . فاحضر المال واعطانيه . فاخذته وعندت به ضيعة . » (١

واعجب ما في هذه الحكاية اعتقاد ابن حمدون انه اذا انفق مال القمار في الحرام يذهب عنه وضر الاثم . واذا استفاد به ملكاً يعيش منه كان حلّا له مباحاً . وقد اشار الابيوردي الى مثل هذا الضلال بقوله :

صيامي ، اذا افطرت بالسحت ، ضلّة ، وعلمي ، اذا لم يجدِ ، ضرب من الجهل
وتزكيتي مالاً جمعت من الربا خسار ، وبعض الجود اخزى من البخل

ومن الذين اشتهروا بحب القمار ابن جامع المغني المعروف في ايام الرشيد قال : لولا ان القمار وحب الكلاب قد شغلاني لتركت المغنين لا يأكلون الخبز . (٢

وممن امتُحن من الشعراء بالقمار شهاب الدين التلعفري الموصلي المتوفى سنة ٦٧٥ (١٢٧٦ م) وهو القائل :

اقلعتُ الّا عن العقار وتبتُ الّا من القمار

« وكان كلما اعطاه الملك الاشرف شيئاً قامر به . فطرده الى حلب فمدح العزيز فاحسن اليه . وقرر له رسوماً فسلك معه ذلك المسلك . فنودي في حلب « اي من قامر مع الشهاب التلعفري قطعت يده » . فضاقت عليه الارض فجاء الى دمشق ولم يزل يستجدي ويقامر حتى بقي في اتون حمام . وفي الآخر نادم صاحب حماة وتوفي . » (٢

(١ نثوار المحاضرة ١ : ١٢٩-١٣٠
(٢ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢ : ٣٤٥-٣٤٦

الزنبيل او المصعد قديماً

L'ascenceur

من البديهي ان اتخاذ الزنابيل والسلال بالحبال ، للصعود والنزول ، حيث لا درجات ولا دركات في القصور والاسوار ، قد كان منذ اوائل الحضارة . ومن اشهر اخبار بولس الرسول تدليته في سلّ من نافذة في سور دمشق ، حين اراد الفرار من وجه والي المدينة . وما من اديب لا يذكر قول الفرزدق يفتخر بفسقه وفجوره :

هما دلّياني من ثمانين قامة كما انقضّ باز افتخ الريش كاسره
فلما استوت رجلاي في الارض قالتا : أحيٌّ يُرجّى ام قتيل نحاذره(١

وفي ايام المأمون (٨١٣–٨٣٣ م) اضطر والي دمشق في دوره الى الهرب في احدى الفتن . ففُعل به كما فُعل قبله ببولس الرسول . قال العباس صاحب شرطة المأمون ببغداد : «كنت مع بعض الولاة بدمشق فخرج علينا اهلها حتى اراد الوالي ان يُدلى في زنبيل من قصر الحجاج . وهرب هو وجميع اصحابه . وهربت في من هرب . »(٢

ومن الالفاظ الدالة على معنى الزنبيل « السُرّيات » وارى ما وقفنا على ذكرها في اخبار المماليك . وكانت اكثر ما تتخذ على الاسوار وفي القلاع . قال صاحب النجوم الزاهرة في كلامه على الامير شيخ المحمودي نائب الشام حين عصى على الملك الناصر فرج سنة ٨٠٢ (١٤٠٩ م) وتحصّن في قلعة صرخد . ثم سعى الامير تغري بردي باصلاح حاله مع السلطان :

« وتقدم فتح الله (كاتب السرّ) وحلّفه على طاعة السلطان . واخذ منه الامير كشبُغا الجمالي واسنبُغا . وكانا في حبس الامير شيخ بعد ما خلع عليهما شيخ وادلاهما من سور قلعة صرخد . ثم ادلى الامير شيخ ابنه ابرهيم ليتوجه مع الولد ويقبل يد السلطان . فلما تعلق الصغير من اعلى السور بالسرّيات . صاح وبكى من خوفه ان يقع . » (٣

---

١) الاغاني ١٦ : ١٧٥

٢) المحاسن والمساوئ للبيهقي ١ : ١٢٧

٣) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (طبعة پوپر) ٦ : ٢١٢

والسرياقات ، فيما يظهر ، لفظة اسبانية (Zurriaga) ومعناها الاسواط جمع سوط وهو الجلد المضفور . وكانت الزنابيل تعقد بهذه الحبال من أدم لشدة وثاقتها . فأطلق لفظها على مجموع الاداة . ولا يبعد ايضاً ان تكون الكلمة تحريف « سرقانيات » مفردها سرقانية وهي لفظة رومية (σχοινίον) بمعنى السلة والزنبيل .[1]

وكان بعض ربات القصور في بغداد يتخذن الزنابيل ويدلينها من القصر ويواعدن فيها من يُردن من اخوانهنّ . ومن اظرف ما جاء في هذا الصدد ما حكاه ابرهيم الموصلي قال:

« قال لي الرشيد يوماً يا ابرهيم اني قد جعلت غداً للحريم . وجعلت ليلته للشرب مع الرجال . وانا متعصر عليك من المغنين . فلا تشتغل غداً بشيء ولا تشرب نبيذاً . ولتكن بحضرتي في وقت العشاء الآخرة . فقلت السمع والطاعة لامير المؤمنين . . فما جاءني احد الا احتجبت عنه . ولا قرأت رقعة لاحد . حتى اذا صليت المغرب ركبت قاصداً اليه . فلما قربت من فناء داره مررت بفناء قصر . واذا زنبيل كبير مستوثق منه بحبال واربع عُرى أدم . وقد دُلي من القصر وجارية قائمة تنتظر انساناً قد وعد ليجلس فيه . فنازعتني نفسي الى الجلوس فيه . ثم قلت هذا خطأ . ولعله يجري سبب يعوقني عن الخليفة فيكون الهلاك . فلم ازل انازع نفسي وتنازعني حتى غلبتني . فنزلت فجلست فيه . ومدّ الزنبيل حتى صار في اعلى القصر . ثم خرجت فنزلت . فاذا جوارٍ كأنهنّ الها جلوس . فضحكن وطربن وقلن قد جاء من اردناه . فلما رأينني من قريب تبادرن الى الحجاب . . . »[2].

وبعد ان عرفن من هو واسمعنه الغناء اخبرهنّ بقصته مع الرشيد . فضحكن وحبسنه اسبوعاً . ثم اجلسنه في الزنبيل واطلقن سراحه . وعاد اليهنّ مع الرشيد متخفياً . الى آخر ما هنالك .

---

١) R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*; t. I, p. 651, 649

٢) الاغاني ٥ : ٤٢–٤٣

العُيَيْنات

سماها المحبي مرة بالعيون المستعارة. وكانت تعرف في القرن الحادي عشر بالنظّارات ، وهو قول فتح الله بن محمود العمري الانصاري المعروف بالبيلوني نسبة الى البيلون ، وهو نوع من الطين يستعمل في الحمام . وكانت وفاته بحلب سنة ١٠٤٢ (١٦٣٢ م) واجاد في وصفها:

رب صديق عاب نظّارة يقوى بها الناظر من ضعفه
وعن قليل صار في أسرها يحملها رقّاً على انفه (١

ولا يُدرى متى بدأ استعمالها في الشرق. وقد أصبنا اشارة اليها في بيتين من اواخر القرن الثامن للهجرة لشهاب الدين الدنيسري الشهير بابن العطار المتوفى في القاهرة في ١٦ ربيع الآخر سنة ٧٩٤ (١٣٩٢ م) وهما:

انى بعد الصبا شيبي ، ودمزي رمى بعد اعتدالي باعوجاج
كفى ان كان لي بصر حديد ، وقد صارت عيوني من زجاج (٢

ولا يخفى لطف مقابلته الحديد بالزجاج.

وآخر من وجدنا له ذكرًا لها محمد بن عمر العرضي الحلبي المتوفى في صفر سنة ١٠٧٠ قال ، وهو ادق تصوير لها:

قال لي الحبّ: إِنْ وضعت على الانف عيونًا وفي عيونك منع
قلت: مذ خط كاتب الحسن في ثغرك نونًا كحاجبين وابدع
فجعلت العيون اربع علي ان أرى ، يا رشا ، حواجب اربع (٣

---

١) خلاصة الاثر للمحبي ٤: ١٠١
٢) الاول من المنهل الصافي لابن تغري بردي. خزانة باريس ٢٠٦٨ ، ص ١٢٢
٣) خلاصة الاثر ٣: ٣٥٧

دفائن الخزائن

ارجوزة غميس

(اي لم تعرف بعد)

للامام ابن سيده صاحب المخصّص في اللغة

في خزانتنا مجلّد لطيف في ٣٣ ورقة وقع الينا في دمشق في جملة اجزاء وجُزازات شتى. وهو غفل من التاريخ ولا خاتمة فيه . اقتصر ناسخه على تعليق هذه العبارة في أعلى الورقة الثانية من الجانب الايسر «من كتُب من كتَب . الحريري من حلب . » وبآخره ثماني صفحات من اوائل كتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» . وسآثره ارجوزة غريبة تبلغ ٥٤ صفحة . كُتب عليها بقلم الحريري المذكور هذا العنوان «هذه ارجوزة ابي الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي البارع المعروف بابن سيده المَرسي صاحب كتاب المحكم في اللغة رحمه الله تعالى آمين» .

ولم نجد من اشار الى هذه الارجوزة بين كل من تكلم على ابن سيده ، وعدّد مصنفاته بعد وفاته سنة ٤٥٨ (١٠٦٦ م) . ولعلها نسخة فريدة لا ثانية لها . على انها لا تخلو من اوهام في النقل وبعض ابيات مختلّة الوزن لتحريف فيها . او سقوط بعض الفاظها . وهي مرتبة على نسق حروف المعجم حتى حرف الزاي . ومن بعده على السياق الآتي : ط . ظ . ك . ل . م ن . ص . ض . ع . غ . ف . ق س . ش . هـ . و . ي . ومرضوعها في الاصل لغوي . تخيل فيها الناظم ان ركباً من رجال المشرق قادهم الاغتراب نحو المغرب . وسُئلوا عن اسمائهم ، وآبائهم ، وقبائلهم ، واخوالهم ، وبلدانهم ، ومراكبهم ، ومعادن قسيهم ، وسهامهم ، وما يقتنصون من الوحش والطير ، وما يأكلون منها ، وما يهدون الى حبائبهم ، واسم حبيبة كل منهم ، والبيت الذي يقال لها عند الاهداء ، وما كانت تنشده هي في الجواب . كل ذلك بالفاظ مبدوّة بنفس الحرف الذي تداوله من حروف المعجم كل رجل منهم في

دوره[1] . وقد شرح ابن سيده الغاية التي توخاها في هذا الرجز بقوله في المقدمة بعد البسملة :

الحمد لله الذي بحمده ... يدوم ما خوّلنا من عنده !
ثم صلاتي ، كل يوم وغد ، ... على السراج المستنير ، أحمد !
نحنُ ركب من رجال المشرق ، ... اكارم الانفس لُدّ المُنطق ،
مالت بنا الايام نحو المغرب ، ... مما يشرّق كوكب تغرّب !
والمرء قد يُزيمه عن الوطن ... حبُّ العلى ، او نبوة من الزمن .
يا ربّ حرّ ماجد تغرّبا ... شرّق في كسب العلى ، وغرّبا ،
وكم نبيه تارك اوطانه ... شدّ الاله ، بعد ذا ، سلطانه .
فلتسألونا واحدًا ، فواحدا ، ... لتعرفوا الفروع والمحامدا .
فكلنا قرم أب وخال ، ... ذو حسب عِدّ ، وفخر عالٍ ،
وناشيء في سُرر الامصار ، ... بين المياه الرزق والاثار .
وكلنا رامٍ ، مجيد ، فارسُ ، ... تصمق من سوراتنا الفوارسُ !
وكلنا امواله وذائم ، ... بذلًا واهدآء ، وذاك دائم .
وكل مخطوط من الهجاء ... حواه ما غوي من الاسآء .
كذلك اسم الاب ، واسم الخال ، ... وغير ذا من بلد ، وآل ،
ومركب ، وقنص مرميّ ، ... وشجر السهام ، والقسيّ ،
كذاك ما تهدي من أشلاء القنص ، ... وما اقرت النفس منها قد خلص ،
وما تزجيه الى الجانب ... خلّاتنا ، في ازمن الشائب ،
وما به من عَلَم يُسمينا ، ... اذا دعوناهنّ ، او يُكنينا ،
وكل ما تهديه من نشيد ... لهنّ ، او ينشدن من قصيد :
في كل ذاك من حروف المعجم ... ما لا يدور غيره على فمي .

ويتضح منهج المؤلف في هذه الارجوزة بنقل اولها وآخرها على سبيل التمثيل ، اي بابَي الهمزة والياء :

حرف الهمزة

ان تسألوا باسمي ، فاني احمد ، ... في كل لأواء الزمان أحمد .
ووالدي اربدّ الهمامُ ... في كل انواع العلى إمامُ .
ونسبي في عنصري اياد ... اهل التقى ، والبأس ، والايادي .

---

١) ممن قلّد ابن سيده في هذا الوضع عبد الرحمن الحميدي . وله في خزانة باريس في مجموع رقم ٣٦١٧ (الورقة ١٠-١٢) منظومة على حروف الهجاء تتضمن معرفة اسم الشخص واسم ابيه ، وامه ، وبلده ، وقبيلته ، ومطلوبه ، وزاده ، وصيده ، وعدّته ، وشره ، ومثله .

وبلدي من ارفع البلدان آمدُ داري ، وقرى أسوان .
اما الذي اركبه فالابلُ ، او أُتُن تمنو لمنّ السبلُ ؟
ان الاتان للفلوص ثانيه ، لا سيما ان اصبحت يانيه ؟
وقد ابان الفضل تلك البيّنا وكان حبرًا واجدًا لما ابتنى .
اما قسيّ فهي من ألآء ، وربما تخذتها من آء .(١
واسهمي من حائط الاراك ، ليس لمن تنشاه من حراك ؛
وربما استجدتها من أثأب(٢ ، تعجل من ارمي عن التثاؤب ؟
وربما كانت من الأمطيّ (٣ منبتها في العانك (٤ الوطيّ .
اما الذي اقنص فالاوزّ ، او الأنوق ، فهي نعم البزّ ؟
أغني عن الآلية والاجام منها ، ويندو إبطها طعامي ،
ثمّت أهدي ، بعد ذاك ، ابطا الى فتاة من ظباء الأرطى ،(٥
ذات دلال اسمها امامه ، تمشي الهوينا مشية الغمامه ،
انشدها باحسن النشيد ما يبعث الورّق على التغريد :
أما لجنح الليل من صباح ! اما يزال ضافي الجناح !
فعند ذاك تنشد الحسنآ . ما أذني عن غيره صمّاء :
آل عديّ ازمعوا الرواحا ، فودّعت اجسامنا الارواحا !

حرف الياء.

واسمي ، إن تسأل بذاك ، يشكرُ ووالدي تملك الملوك بمصر .
ونسبي في بنة اليحامد اهل الندى ، والبأس ، والمحامد .
ولي خال في بني يربوع ، في فدك حلّ ، وفي ينبوع .(٦
اما الذي اركبه فيحملُه ما ان تزال في الفيافي تعسله .

---

١) الآلآء شجر رملي مرّ الطعم ، دائم الخضرة . والآء شجر له ثمر تأكله النعام . وقيل هو ثمر السرح . وكثيرًا ما يعبر بالثمرة عن الشجرة (تاج العروس ١٠ : ١٩ و ١ : ٤١)

٢) الاثأب شجر من اشجار البادية على ضرب التين ينبت ناعمًا كأنه على شاطىء نهر وهو بعيد عن الماء (تاج العروس ١ : ١٦٣)

٣) الأمطيّ شجر طويل يحمل المِلْك . والعلك ضرب من صمغ الشجر كاللبان (اللسان ٩ : ٦٢٦ و ١٢ : ٣٥٨)

٤) العانك الرملة فيها تعقّد

٥) الارطى شجر ثمره كثمر الغلاف وثمره كالناب . قال ابو حنيفة هو شبيه بالنفى ينبت عصيًّا من اصل واحد (تاج العروس ١ : ١٠١)

٦) فدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة . وينبوع هو ينبُع قرية بين مكة والمدينة . اشبع الضمة لضرورة الوزن .

اما قسيّ فن اليَنْبُوت (١ منها معاني ، واجتلاب قوتي .
اما سهامي فن اليَعْضيد (٢ نحتُها من غصن خضيد ؛
وربما كانت من اليِنْتون (٣ أصلب عيداناً من الزيتون .
اما الذي اصطاد فاليعقوبُ (٤ حيزومه باسهمي منكوبُ ،
أصيب من جيمها الياقوخا ، من غير ان أحنو لها الفخوخا .
آكل منه يده اليسرا ، اذا وجدت لحمه سمينا ؛
ثمّ اهدي يده اليسارا ، ولا اعدّ فقدها خسارا ،
الى فتاة اسمها يمامه قد ألفت حدائق اليمامه
تُغذى من الرقلة والسحوق ، مما تنمّيه بنو صفوق ،(٥
يُجبى اليها الرطبُ السقيط ، والتامر المشرّ الريط .(٦
والماء بين راحتيها جاري من كل عذب ، خضر النجار ،
تُغال في ملاعب البستان حوراء من كواعب الجنان ،
قلت لها ، وادمعي دمّاء ، يوم النوى ، واضلعي ملاء :
يمٌ غرقتُ فيه من هواكِ ، اذ اسفرت عن وجهها نواكِ .
قالت ، وقد اصغت الى كلامي ، بعد الذي اهدت من السلام :
يوم النوى معترك المشاقِ ، بين يد التوديع والفراقِ .
وبلدي يثرب خيرُ دار ، مأوى المهاجرين والانصار ،
حيث ثوى قبر النبي أحمدِ ، أكرِم بتربِ ارضهِ وأمجدِ !
نوافج المسك ونشر العنبر ، بين تراب قبره والمنبر ؟

١) اليَنبوت شجر المزروب في احد الاقوال . قال ابن سيده : اخبرني بعض اعراب ربيعة قال : تكون اليَنبوتة مثل شجرة التفاح العظيمة . وورقها اصغر من ورق التفاح ولها ثمرة اصغر من الزعرور (التاج ١ : ٥٨٤)

٢) اليعضيد قال ابن سيده : بقلة زهرها اشد صفرة من الورس وقيل هي من الشجر (لسان العرب ٦ : ٢٨٦-٢٨٧)

٣) اليِنتون غفلت عن ذكره المعاجم الكبرى . وذكره ابن البيطار في مفرداته فقال : « ينتون : هو الثافسيا وقد قلت انه الدواء المسمّى بالبربرية ادوياس » (٦ : ٢١٠) وقال في ثافسيا : «...نبات جملته شبيهة بورق الثبات الذي يقال له مارانون (كذا) وعلى اطرافه في كل شعبة أكلة شبيهة بأكلة الشيح فيها زهر ويزر الى الغرض ما هو شبيه بيزر النبات المسمى مرمس (كذا) وهو الكالخ غير انه اصغر منه واصل ابيض كبير غليظ القشر حريف» (١ : ١٤٨)

٤) اليعقوب ذكر الحجل

٥) الرقلة النخلة الطويلة التي تفوت اليد . والسحوق من النخل الطويلة .

٦) في الاصل الثامن بالنون . والتامر هو ما ادرك ثمره . والمشرّ الثمر المدرك والكثير . والريط الثمر اليابس يوضع في الجراب ويصبّ عليه الماء . والبسر المنضوع .

صلى عليه ربّنا وسلما ، وصانه في عرشه ، وكرّما ،
وآله وصحبه الكرام ا والحمد لله على التمام !

ومن هذين الحرفين ، فضلًا عما بينهما من سائر الحروف ، يتبين ان فائدة الارجوزة لا تتعدّى لغة البداوة . وكلها شواهد على سعة محفوظ ابن سيده وإحاطته بالوحشيّ منها والنادر . وقد توسّع جدًا في بعض الحروف واطلق العنان لبديهته فيها ، فابلغ حرف الدال الى ٨١ بيتًا ، والزاي الى ١٠٧ ، وهو اطولها نفسًا واكثرها استطرادًا . واللام الى ١٠٢ والنون الى ١٠٣ . ويظهر ان تطويله في النون انساه ما بدأه فيها من ذكر النسب لإمعانه في الطفرة من معنى الى آخر . فكرّره ثانية ، وبعد ان افتتح الرجز بقوله اولًا :

واسمي ، ان تسأل به ، نمانُ ومولدي ومنشأي نمانُ ،
اعني بذاك واديَ الاراكِ ، والاسم قد يعمّ باشتراك .
ووالدي نُسبة ابن نائل طلق المحيّا ، سَبِط الانامل ،
لم يُتسَر بوُدّهِ فِناء ، منذ نفى وجودَه الفَناء !
ابكي عليه بدموع ما تَني ؛ ليت الزمان قبله اماتني !

رجع على عقبه وقال ، بعد ان افاض في الرثاء والتذكير والاكثار من النصائح :

ولعنة الله على اناسٍ يخفون غير ما بدا للناس
وقد وعظتُ ، فاقبلِ المواعظا ، ان كنت من نفسك تُلفي واعظا
ان تسألوا باسمي ، فاني ناصرُ ؛ ووالدي خِدن المعالي ناصرُ .
وحسبي ونسبي في ناجيه ، قبيلة من كل سوء ناجيه .
ولي خال في بني النجار ، ممتنع الدار ، عزيز الجار .

وفعل قبلًا قريباً من ذلك في حرف اللام ، وبعد ان اسهب في الموعظة ، وقف وقال جامعًا بين الهجو والمديح لوامه في التنقّل اعتباطًا لغير اقتضاء . اوملآمة :

وقد اطلت القول ، إنْ وعظٌ نفعْ ، وُفّقتَ من يصادق الوعظ انتفعْ !
الحمد لله الذي الشانُ ! بيّانٌ عندي وايقٌ وشانُ .
ولعنة الله على أملاكِ يكفرون كلّ حبر زاكِ ،
من كل مفتوق المياه بطنه ، ليس له في غير ظلم فطنه ،
رخو الوكاء ، غير ذي غَناء ، الا لذي القهوة والغناء .
ثلب ليلٍ ، وخارًا جيفه ، تخفق رايات حشاه خيفه ؛
اذا رأى الغنام مستطيرا ، يكاد منه القلب ان يطيرا ؛
وان يرى الثريد ، فهو ليث فيه ليثى واحتيه غيثُ ؛

يأكل في سبع من الامعاء (١ ، كما دحشت (٢ الثوب بالوعاء .
فحظه من الاله شحط ، عليه لعنٌ دائم وسخط !
لكن وليّ امرنا عليّ ، في كل مجد جدّه عليّ !
وُفّق للعدل وللرشاد ، فهو فتى السؤدد ذي السداد ،
مضمّر الكشح ، اشمّ المنكب ، واضحة غرّته كالكوكب .
ونسبي من الانام علمٌ سماء عزّ وطراف ضخم . . .

وعلى هذا هو ابو الحسن ابن الامير ابي الجيش مجاهد بن عبدالله العامري ، الذي كان ابن سيده منقطعاً اليه ، بدليل قوله في حرف الخاء :

صحبتُ خير ملك مجاهدا ، وكان في جمع العلوم جاهدا ،
ولم ازل بشغله مسيرا ، فما افدت عنده قطميرا .
لكنما سلبه ابو الحسن ، قد ظلمت منه في ذرى عيش حسن ،
ان لم يُفيّض لي هناك حاسد ! اذ كل ذي صدر علي حاقد .

وروى ياقوت ان لقب الامير علي كان « اقبال الدولة » وانه حدثت لابن سيده في زمانه نبوة (٣ . فهرب منه . ثم قال يستعطفه من قصيدة :

الا هل الى تقبيل راحتك اليمنى سبيلٌ ، فان الامن في ذاك واليمنا !

وقد اثنى عليه ابن سيده في ارجوزته غير مرة . وقال ايضاً في حرف الزاي يمدحه ويعرّض بغيره من الملوك في ابيات ننقلها ، على طولها ، لتعريف طريقته في الثناء والهجاء والطعن واللعن :

قد بار سوق النهم ، الا عند من فاق الورى ، نجل العلى ابي الحسن ،
عليّ ابن الملك الموفّق ! لولاه سوقُ ادب لم ينفق .
بأوي الى حضرته اهلُ السُّنن ، والحكمة الغراء ، والذهن الحسن ،
وحاملو القرآن ، والآداب ، في كنف منه وفي جناب .
يسقيهم رأيه رطلَه ، وينثر ، الدهرَ ، عليهم ظلّه .
يكرمهم بالقصد والالمام فعلَ ابيه ، الملك الهمام !

---

١) اشارة الى الحديث : « المؤمن يأكل في معيّ واحد . والكافر في سبعة امعاء » .

٢) كذا في الاصل الذي امامنا « دحشت » بالشين المنقوطة . وفي دواوين اللغة ان دحش بمعنى ادخل ودسّ هو من اصطلاح العامة . ولكن وروده على لسان مثل ابن سيده دليل على صحته . وقد كان في وسع ابن سيده ان يتنكب هذا اللفظ هنا ويقول في موضعه « دحست » بالسين او دسست .

٣) في حاشية ارشاد الاريب (٥ : ٨٥ ، طبعة سنة ١٩١١) استدراك على هذه اللفظة وانها قد تكون محرفة عن « ذوبة » (كذا) وانما النبوة هنا بمعنى الزلة والعثرة .

يوسهم رفقاً ، اذا ما اخطأوا ، ولا يزجّيهم ، اذا ما ابطأوا ،
الّا بألوف من الحباء. كذاك فعل الاب بالابناء !
ما لهم من بعده من آوي ؛ كل الورى عمرو وهم كالواو.
وان تشأ فاختبر الاملاكا ، فلست تُلفي فيهم ملاكا.
ما منهم الا اخو طنبور ، وجالس الى ذرى تنور ،
اذا رأى مغنّياً مأبونا ، كساه ديباجاً وسقلاطونا ،
مسدّدًا الى ذراه عُرفه بكفّه ، لابرئت من عَرفه !
وان رأى ذا ادب ففيها ، اهدى له نخامة يُلقيها ؛
يرميه إبعادًا له بالزندقه ، وهو الغبيّ لا يحاكي منطقه.
واوقح الناس ملوك قاسفه ، تقول للاحبار : يا زنادقه !
واينا اشدّ عن رشد عمى فلا عدتهُ لمّة من السما !

كذا بمثل هذه السلاطة كان ابن سيده يتناول الملوك والامراء بالقدح والجرح. فما الظن بمن دونهم من العلماء والفقهاء والادباء الذين كانوا يزاحمونه على غشيان ابواب الملوك ومجالس الكبراء . فلا بدع اذا كانوا شديدي العداء له مجمعين على ذمّه وانتقاصه . وقد سبق إلماعه الى حسدهم له ؛ وتوغر احقادهم عليه ، حين ذكر حضرة الامير علي بن المؤفّق فقال « اذ كل ذي صدر علي حاقد ». وهذا انموذج من خطابه لهم ، وفيه وصف زيّ العلماء في زمانه:

لو قد تركتم يا بني المُعيشه شتّى ، لنيت عنكم الامنّه . . .
لا زيّنت هامتكم قلانسُ ، ولا اللحى ، فاخا مكانسُ ؛
ولا احتمال الكتب في الاكمام ، فذاك ضدّ النّور في الاكمام ؛
ولا تردّيكم ببيض الاردبه ، وما تصدرتم له في الاندبه ،
يا رب لصّ قد يُسمّى قاضي ، واللهِ من تجراه غير راضي.
ورب من تدعوه بالغبيه ، وحُصنات الحيّ تتّقيه.
ورب نكس لا اريد ذكره ؛ لم اغتل في هجوه افكره.

وله في حرف الزاي ابيات سرد فيها دروسه ومحفوظاته سننقلها فيما يأتي . وبعد ان عدّد ما شاء منها ، قال بلسان الفخر والعُجب :

فكيف يُلحى عالم قد سَهرا ! ألا حياءٌ من هلال جَهرا !
لتخبإ الكلاب عن هلال لا يرهب النقص على كمال ؛
اذا الهمأنّ بالهي قلبي ، فما أبالي بنباح كلبي.
يا عجبا من قمر محسود ، هل فيه مرجى ليد الحسود !

يحسدني من لا ينال سعيي ، أشربي من عرضه ورعيي .
دعهُ وما يختاره لنفسه ثم أرضَني لأختي وعرسي .
يظن قوم دأبي السكوتا : كأنني ارهب ان اموتا !
متى اجدت في اللئام نطقي ، فليقطع السيف سواء عرقي !

وهذه الابيات مرآة اخلاق ابن سيده وآدابه . وفي قوله « ثم أرضَني لاخته وعرسه » مثال من بذاءة لسانه وسفالة منشاه . وقد اقر بفمه ان « مشربه ورَعْيه » من اعراض حساده واعدائه . وسمّى منهم مرة في رجز الطاء « ابن سهيل » وعرّض به اسوأ تعريض :

في عرسي والأم ، ثم الاختِ ، وقسه ، فذاك اخزى مقتِ

ولم يقف عند هذا الحدّ القبيح . بل وماه باخبث داء . واشار الى نفسه بانه عافه وعف عنه باوقع الفاظ السوقة واخسّهم ادباً ومشرباً . وهذه اول مرة نجد فيها احد اقطاب اللغة واشهر ائمتها ينحطّ هذا الانحطاط الشائن باستخدام امالي اللغة ومصنفاتها للتشفي من الاعراض باقذع لسان واسقط لفظ . ولا غرو فقد كان موضع الحياء منه خراباً . وقد نصّ كل من اشار اليه على انه كان ضريراً وابن ضرير .

ومن الغريب بعد ذلك قول القاضي الجيّاني عنه انه « كان مع اتقانه لعلم الادب والعربية متوفرًا على علوم الحكمة . وألف فيها تآليفات كثيرة »[1] وكان يقال قديماً لاهل الحكمة «الفلاسفة» . ومن ابلغ الهزل ان يعدّ ابن سيده فيلسوفاً بعد ما سبق من قذره وفجوره . ولا شكّ ان الجيّاني يعني بالحكمة علوم المنطق والطب والحساب دون الفلسفة . وهو ما نبّه عليه ابن سيده نفسه حين اشار بتعلمها واجتناب الفلسفة ، اذ كانت عنده مفسدة للدين . فقال من رجز آلتون :

لا تَهيَأنّ مقالة الفلاسفه ، فانها للنيب غير كاشفه ،
وان تنل منها فحدّ المنطقِ ، او الحساب ، او بطبّ فاعلقِ :
وغير ذا من غامض الطبيعه مغمزة في هذه الشريعه .

وله في جملة مواعظه ونصائحه التي اكثر منها في مواضع شتى من ارجوزته اقوال منكرة ، لا بأس من الاشارة الى بعضها ، لما تشفّ عنه من المذاهب

---

١) ارشاد الاريب ٥ : ٨٥

الفاسدة . ومن اقبحها انكاره على الله ، عزّ وجلّ ، بعض خلقه وتكوينه . واعتراضه عليه ، سبحانه وتعالى ، لعدم مساواته بين الناس في الرزق والحرمان. وذلك قوله في رجز الزاي:

لو شئت، يا ذا الصفح والغفران ، عمّمت بالسخط او الرضوان !
وفي الغنى سوّيت او في الفقر ، ولم تعذّب مُعدماً بثرى ،
كوّنت اشياء ذوات حسن ، ثم تُفني بِبَرِّها وتُفني ،
ولو تشاء ، دام ما كوّنتا ، لا عالم بالسرّ الا انتا !
قد اهل الجهل بالاموال ، وبالبنين المسند الرجال ،
تكسوهم الديباج والحريرا ، ويُمنحون التاج والسريرا ؛
ونحرم النبيل قوت ليله ، تتركه لضيعة ، وعيله ؛
وربما وهبته إناثا معرّيات ، عُطّلا ، غراثا ؛
وربما صاهر في الارذال ، لثقل الظهر ، وعدم المال.
ترى الفقير باكيَ الاحاظ ، وان غدا مبتسم الالفاظ ،
تحمله شاتة الاقارب ان يتقذي من لُحمة المقارب ،
ولو يطيق لاك أفعوانا ، ولا يوافي لاخٍ خِوانا.
هذا اذا ما كان ذا مروّه ، ومُرقاً في طيب الايوّه.

وفي بيت الاقارب اشارة الى المثل المشهور « الاقارب عقارب » وقد اعاده في رجز النون واشتطّ في تعميمه وسوء تأويله . وبلغ الغاية في التحامل على الاقرباء والاغراء بالبغض والتحذّر ، فقال:

إهوَ الذئاب ، واشبا الاقاربا ، وواصلي الحيّات والعقاربا !
شرُّ قرين للكريم اقربه ، ذاك افعاه ، وذاك عقربه !
شرّ الدمُّ ، وبخل العم ، والخال ، والخالة ، وابن الامّ .
واشنأ الناس لك ابن أختِكا ، فامقته ، فهو آخذ في مقتكا.

ومثل هذا الهذيان قول بعض الآباء ، لا شك حباً بالسجع « يا بني ، الاب ربّ . والام همّ . والاخ فخّ . والعم غمّ والخال وبال.» وليس الاقارب اول شهداء السجع في الاسلام . ويؤخذ من ابيات له في رجز النون ايضاً انه كان متشيعاً لبني امية ككثير من اهل الاندلس والمغرب. وهي قوله:

إئنِ على الصدّيق ، والفاروق ، فانه من اوكد الحقوق.
ولا تُضع تقولها عيانا ، خير امرئ ، بعدهما ، قد كانا.
ولا تؤخّر ذا العلى عليّا الهاشميّ ، البالغ الكميّا.

ومن يكُ يقدح في معاويه ، فذاك كلب من كلاب عاويه .
اتبع الحبر الاجلّ مالكا ، وان تبعت غيره ، فذلكا ،
كالشافعيّ ، وابي حنيفه ، كلاهما ذو ورع وخيفه .

وقد سكت تماماً عن احمد بن حنبل ولم يشر اليه بحرف .

ومن الفوائد التي تبرّع بها في هذه الارجوزة ، على غير انتظار ، ذكره دروسه ومحفوظاته ؛ وتسميته شيوخه ؛ وتعداده ، بلسان الخيلاء والاعجاب ، كل المصنفات والعلوم التي قرأها واتقنها . زعم انه اقبل على تلقن القرآن ، وهو في السنة الرابعة من عمره . ووعاه في صدره قبل السادسة . فقال في رجز الرّاي :

قرأتُ بالوحي ، وسنّي اربعُ ؛ وقبل ستٍ تمّ عندي اجمعُ .
حتى اذا حليت بالتنزيلِ نظرت في حقائق التأويلِ ؛
ولم ادع لعالم نحبيرا الا وقد ظفّرت بها خبيرا :
فلا ابن عباس اضمت وضمه ، ولا ابن سلّام تركت جمعه ،
ولا كتاب ابن حميدٍ عبدِ الا اذخرت كل ذاك عندي ؛
حتى اذا استقامت بالمجاجِ ، قرأت كتب كل حبر ناجِ ،
كتب ابي اسحق ذي المعاني ، أوضح به اشكال القرآن !
وكل ما احمله من سندِ عن الفقيه السلمنكي احمد ،
ثم قرأت كتب الموطّإ ، عليه دون كسل مسيطِ ؛
ثمّ اشبعت من البخاري رواية ، فتمّ لي فخاري .
ولم أضع كتب ابي عبيدِ ، جمعها في رمقي ، وقيدي .
ثم قرأت علم سيبويهِ ، لبّ الفؤاد فهماً عليهِ ،
على ابي عثمان شيخي نافعِ ، وكان فيه جد حبر بارعِ .
ثمّ فاوضت ابا العلاءِ في كتب اللغات والاسآءِ ،
روّاني الغريب والإصلاحا حتى اثار فجرها وِلاحا . (١)
ثم روّاني الى الالفاظِ رواية ، فسدت في الحفاظِ .
وقد قرأت كتب المجازِ عليه ، من قرموطة الشيرازي ؛
بعد سماعه عن الفقيهِ احمد ذي التفهيم والتفقيهِ .
ثم قرأت كتب الرمّاني ، والفارسيّ ، وابنه عثمانِ ،
اعني ابن جنّيّ ، فانه بنُ له وان كان اباه الحسنُ .

---

١) ورد هذا العجز في الاصل هكذا « حتى اثرى فجرها واسداحا » ولا شك انه من تحريف الناسخ .

فانه خرّجه وأدّبه ، وقد تقول للشفيق : يا أبه .
وغرّ قوماً هذه البنوّه ، فنحوا الهنا الابوّه .
سبحان ذاك الواحد الصمد ، الفرد ، لم يتخذ صاحبةً ، ولا ولد !
كل كتاب لغة وعيتُ ، وكل شعر لهم رويتُ ،
ثم تأملت حدود المنطق ، أن برُم حقيقةً ، فلينطق !

ويستدلّ من هذا البيت الاخير انه اجترأ من علوم الحكمة بعلم المنطق وحده . ولم تكن له مشاركة ، لا في الطب ، ولا في الحساب . ولذلك لم يذكرهما في جملة ما تعلمه وحفظه ، خلافاً لما يتوهم من قول القاضي الجياني كما سبق . ويا ليته بدلاً من علم المنطق تعلم ادب المنطق ، فانه كان اشدّ حاجة اليه !

ومن هذه التعليقات التي افدناها من مطالعة هذه الارجوزة ، يتضح فضل نقد المؤلفات والنظر فيها ملياً لاستيضاح ما غمض من اخلاق المؤلفين ، ووصف آدابهم وعلومهم وآرائهم ؛ وسدّ جانب من الثلَم التي غادرها المؤرخون في تراجمهم . وغني عن البيان ، بعد ما تقدم شرحه والاستشهاد به ، ان ابن سيده ، اذا كان قد اغرب في ما املاه من نوادر محفوظه الواسع في اللغة ، فقد اساء جداً الى علمه وقدره واسمه ، بما استرسل له في غير موضعه من اللغو والفضول ، والفجور والقذف الذي اطاع فيه غضبه ، واضاع ادبه .

لغة الحضارة

التقرير والرفيعة والمشروح

يشبه ان يكون لفظ التقرير من وضع ارباب الحكم والقضاء . ولعله لا يرجع الى ما وراء اوائل القرن الاخير . ولا يخفى ما فيه من القصور عن تأدية معنى rapport بالتمام . ولذلك آثرت عليه مجلة لغة العرب ببغداد كلمة «رفيعة» لما فيها من معنى القصة والبلاغ . وحبذا لو اصطلح الكتاب عليها في مكان التقرير . ولعلّ قلة شيوعها لورودها قديماً في الدلالة على الرقعة المرفوعة للتظلم والشكوى قال الصولي في اخبار سنة ٣٢٨ (٩٣٩/٤٠ م) « وكثرت الرفائع الى بجكم من ظلم اصحابه للناس . »[1] وقال الجهشياري بعد ان ذكر ان رياحاً ، والي الحرمين ، حبس محمد بن خالد سنة ١٤٤ (٧٦١ م) وحبس كاتبه رزاماً « فكان يضرب رزاماً في كل يوم . . . فلما بلغ به ما بلغ احضر رزام كتاباً يوهمه ان فيه رفائع على محمد بن خالد . فجمع رياح الناس . فلما اجتمعوا قال لهم ايها الناس ان الامير امرني ان ارفع على محمد بن خالد . »[2] وفي ايام احمد بن طولون في مصر اغتصب احد قواده راهباً خمس مئة دينار . فحضر الراهب ليبلغ شكواه للامير ، وانتظار ركوبه ليوصل اليه قصته . فقال له حاجب ابن طولون « انا ادفع لك الخمس مئة ديناراً . وانا استرجعها منه او اتركها له . واصرفه عن الرفيعة فيه . »[3]

وقد ورد الرفع بمعنى الرفيعة كالعرض والعريضة . قال ابن بطوطة في كلامه على السلطان ابي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين ملك الهند والسند : « كان لا يمنع احداً من اراد الشكوى . . . وعين اربعة من كبار الامراء يجلسون

١) كتاب الاوراق . اخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١٤٢
٢) كتاب الوزراء والكتاب ، ص ١٢٨
٣) سيرة ابن طولون للبلوي . المكتبة الظاهرية بدمشق .

في الابواب الاربعة من المشور لاخذ القصص . . . فان اخذ حاجب الباب الاول الرفع من الشاكي فحسن »[1] . وقال ايضاً : « كتبت رقماً وهم يسمونه عرض داشت . فدفعته الى قطب الملك صاحب السند . »[2]

ومن الشواهد على ورود فعل « رفع » بمعنى شكا وتظلم قول عبد الرزاق القرطبي في اخبار سنة ٦٥٧ (١٢٥٩ م) :

« فيها توجه فخر الدين بن الدامغاني صاحب الديوان الى الاردو المعظم وهو صدور العراق . فانعم السلطان عليه . واراد ان يفوّض امر العراق اليه . فرفع نجم الدين بن عمران عليه . ونسب اليه انه اطلق من السجن بالمدائن رجلاً من انساب الخليفة المستعصم . »[3] وللمقريزي في كلامه على رشيق الاخشيدي « استحجبه ابو بكر محمد بن علي المادراني . فلما مضت عليه سنة رفع فيه انه كسب عشرة آلاف دينار . »[4] وهلمّ جرّاً . ومن هذا المعنى اشتقّ لفظ المرافعة في لغة الاحكام والقضاء .

وكان الكتّاب قديماً يعبرون عن معنى « التقرير » بلفظ هو اكثر مطابقة واصحّ تأدية وهو « المشروح » لان ما فيه ليس الا شرح الواقع وكشف الحال . ولنا عليه شواهد اقدمها ، فيما وقفنا عليه ، قول الوزير ابي شجاع الروذراوي في عنوان احد فصوله « نُكت من جملة مشروح وجد بخط ابن شهرام ؛ لما كان رسولاً الى الروم) »[5] . وللدبيثي في ذكر اعتراض الحاج في صفر سنة ٥٩٠ (١١٩٤ م) « كُتب بذلك مشروح وضع فيه الحاضرون من ارباب الدولة والفقهاء والعدول خطوطهم . »[6] ولما ذكر النويري وجود كريم الدين وزير السلطان الناصر محمد ابن قلاوون مشنوقاً سنة ٧٢٢ (١٣٢٢ م) قال « نُظم بذلك مشروح وسُيّر

١) رحلته . طبعة النيل ٢ : ٥١

٢) رحلته . طبعة النيل ٢ : ٨١

٣) الحوادث الجامعة ، ص ٢٣٨

٤) الخطط ، مطبعة النيل ، سنة ١٣٢٦ ، ٢ : ١٣٠

٥) ذيل كتاب تجارب الامم ، ص ٣٦

٦) الثاني من ذيل تاريخ بغداد للدبيثي . باريس ٥٩٢١ ، ص ٧٥

الى الابواب السلطانية. »[1] وللمقريزي في كلامه على القاضي الرشيد بن الزبير ، ايام مشارفته الصعيد الاعلى « طالع المجلس الافضلي بحال ارباب الاملاك . . . ورسم له كشفها ونظم المشاريح بها . . . فاعتمدوا ما امروا به من الكشف في هذه الاملاك . . . واصدروا الى الديوان المشاريح بما كشفوه. »[2]

ومما يدلّ على شيوع هذا اللفظ وقتئذٍ بين كل طبقات الكتّاب وروده في تواريخ الاقباط ايضاً. قال في سيَر البطاركة : « حضر المهندسون وكتبوا مشاريح بان هذا الحائط للكنيسة وما للمسجد فيه شي. . »[3]

ومن هذه الامثلة يُستدلّ على ان لفظ المشروح قديماً كان يراد به نفس ما يُراد اليوم من لفظ التقرير . فما اجدره ان يحلّ محله لتقدمه في الاستعمال وصحة اشتقاقه ووضعه. وحسن تأديته المعنى بالضبط والكمال.

المنتزه والمتنزّه

لم يبقَ احد ممن تصدّى للافتاء والاستدراك في اللغة. لم ينبه على وهم استعمال المنتزه بدلاً من المتنزّه. وقد دفع حب التقليد والتحذلق كل من طبع كتاباً او جدّد طبعة على اصلاح اللفظة الاولى بالثانية في كل المواضع التي وردت فيها ، دون المبالاة بامكان صدورها من قلم المؤلف نفسه . وربما تجاوز هذا العبث بالآثار القديمة كتب الائمة الذين يُعتقد فيهم حب التمسك بالفصيح كالاغاني ، في طبعته الحاضرة في دار الكتب المصرية ، الى مصنفات ضعفة الكتاب المتأخرين كنزهة الانام في محاسن الشام للبدري ، في طبعته البغدادية ، مع ان فيها من الوهم واللحن ما لا يصدّق معه ان يكون البدري خالف طبعه في هذه اللفظة الواحدة. وقد وردت كلمة المنتزه في كل نسخه المخطوطة في الخزائن الغربية. فما كان احقّ طابعي كتابه ان يبقوها على اصلها ولا يمسّوها بادنى تحويل ، اذ لا يخفى ما في مثل هذا التبديل والاصلاح الاخرق ، ولو بحجة الرجوع الى

١) مجلد من نهاية الارب. خزانة ليدن Arab. 19b Gaul, f°20a

٢) الخطط ١ : ١٢٧

٣) سيَر البطاركة الاقباط . باريس ٣٠٢ ، ص ٢٨٦

الفصيح ، من الافساد والجرأة على المؤلفين والمؤلفات ، ونسبة الفصاحة احياناً الى غير اهلها . ولو شاء اليوم مؤرخ اللغة استقراء كل المواضع التي ثبتت فيها لفظة المنتزه في كتب المتقدمين ومقابلتها بشواهد المتنزّه للاستدلال من هذه المعارضة على ترجح احد اللفظين وشيوعه في الكتابة لاخطأ الغرض والتبست عليه الحقيقة لكثرة ما في الكتب المطبوعة من اماكن التبديل الحديث .

وقد مرّت بنا مراراً اثناء مطالعتنا مخطوطات الخزائن العامة لفظة المنتزه مرسومة باقلام كثيرين من الكتاب بخطوط ايديهم فضلاً عن اشعار الشعراء . ومن هذه الاصول مجلد من المقفّى للمقريزي في خزانة باريس ، وهو بقلمه ، خطّ فيه كلمة المنتزه جلياً بتقديم النون على التاء كقوله في كلامه على عبد الرحمن الخليفة الاموي الداخل « ابتنى مدينة الرصافة منتزهاً لهُ » (رقم ٢١٤٤ ، ص ٥٦) وفي خزانة اكسفرد مجموع مما فيه كتاب المباحثات لابن سينا . ورسالة حيّ بن يقظان مع شرحها له . قال في مقدمتها : « قد تيسرت لي حين مقامي ببلادي . برزة برفقاني الى بعض المنتزهات المكتنفة لتلك البقعة » كذا بالنون ثم التاء . وخط هذه الرسالة واضح صريح لا شبهة فيه . كُتب في شهر ذي الحجة سنة ٦٣٤ (١٢٣٧ م)

واما في الشعر فقد جاءت لفظة المنتزه منذ القرن الرابع للهجرة ، اذا لم تكن تقدمت هذا التاريخ . وحسبك ان كشاجم المشهور باديبه وسعة علمه لم يتوقف عن استعمالها في بيت قاله يصف فيه بعض مواضع لهوه وقصفه :

منازل كانت لي منتزهاً ، وكنّ مواخيري ومنتزهاتي [1]

ولا ريب انه لو قُدّر انا الوقوف على دواوين من عاصره او سبقه من الشعراء العباسيين لاصبنا فيها شواهد اخرى تعزّز هذا الاستعمال . لانه لا يعقل ان يكون كشاجم قد انفرد وحده به ، دون سائر اهل عصره ومصره . ونظيره قول ابن منقذ مكين الدولة ابي الغنائم الكناني في بيتين مدح بهما دمشق وقال :

ما بعد جلّق للسرتاد منزلة ، ولا كـكأنها في الارض سكانُ

---

١) معجم البلدان لياقوت . طبعة اوربة ، ٢ : ٦٨٦

فكلها لمجال الطرف منتزه ، وكلهم لصروف الدهر اقران (١

ولمحاسن الشرّا الحلبي قصيدة طويلة مدح بها دمشق ايضاً وعدد مواضع أنسها ومنازهها فقال في بيت منها:

حول وادي الشهراء منتزهات آنسات ، سنيّا لوادي شهرا ! (٢

وغلبت اللفظة جدًا في اصطلاح المتأخرين من الكتاب والشعراء . ومن امثالها في الشعر قول عبد الكريم النقيب من موشح في مدح دمشق:

ورعى الغوطة من منتزه فاق في الحسن سواه وسما !

ونظيره قول محمد بن عثمان الشهير بابن الشمعة يصف دمشق ايضاً:

أحبب بها جنة الدنيا ، التي جمعت من كل منتزه مستكمل الصور (٣

وكفى بهذه الشواهد دليلًا على رواج اللفظة واقبال المحدثين والمولّدين على اجازتها وتصحيحها. ولا مراء مع ذلك ان فعل انتزه لم يسمع فيما قيل او بالاحرى لم ينقل في دواوين اللغة . وان اوّل من انكر اشتقاق اسم المكان منه اصاب في تخطئته . ولكن الاشتقاق قياسي لا غبار عليه واذا كان الفعل الذي أخذ منه قد فات اللغويين تقييده ، فليس ذلك حجة على وجوب اطراحه . ولا نحال ان احدًا يدعي ان ارباب المعاجم احاطوا بكل مفردات اللغة ومشتقاتها . ونقلوا كل ما نطقت به قبائل العرب قبل الاسلام في مختلف امصارها وحضارة ممالكها . ومما يرجح ورود فعل « انتزه » في اصل اللغة وامكان غفلة الرواة عنه انه جاء في مادة النون والزاي الثنائية مزيد آخر يشبهه مبنى ومعنى . وهو فعل « انتزح » اي تباعد . اثبتوا منه اسم المكان وقالوا هو بمُنتَزَح عنه . اي ببعد منه . وهو نفس المعنى المقصود في اصل المنتزه . فلِمَ يكون واضعو اللغة اجازوا في المادة الواحدة صيغة منعوها في المادة الاخرى وهما مترادفتان . وأيّة علة قضت بمثل هذا الشذوذ في الاشتقاق . وعلى كل فقد كان لفظ المنتزه مسموعاً في اوائل العصر العباسي بدليل وروده على لسان كشاجم دون ان يستدركه عليه احد ممن الف في كتب الملاحن . ومن سمع حجة على من لم يسمع .

١) تهذيب ابن عساكر ٤ : ٤٦٣-٤٦٤

٢) عيون التواريخ للكتبي . باريس ١٥٨٧ ، ص ٤٣

٣) البرق المتألق في محاسن جلق لابن الراعي .